مُسْتَطَرٌ

مُسْتَطَرٌ.. مقالات دينية وفكرية

الكاتب: أحمد المنزلاوي

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 26165/ 2021

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6916 - 51 - 7

تنسيق داخلي
مركز وَدُود للصف وتجهيز الكتب
010 91 888 682

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

يوريكا لخدمات النشر والتوزيع

EUREKA
FOR PUBLISHING SERVICES

01288627690
eureka4publishing@gmail.com

يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من الكتاب بأي وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابي من دار النشر

مُسْتَطَرٌ

مقالات دينية وفكرية

تأليف

أحمد المنزلاوي

روائي وباحث في التَّاريخ والعُلوم الإسلاميَّة

عضو الاتّحاد الدولي للغة العربيَّة - بيروت

عضو اتّحاد كُتّاب مِصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾
[القمر: ٥٢-٥٣].

* **مُسْتَطَرٌ**: اسْمُ مَفْعُولٍ بمعنىٰ: مَكْتُوبٌ، مِنْ «سَطَرَ» إِذَا كَتَبَ سُطُورًا.
والزُّبُرِ: الكُتب، ومفردها زَبُور.

على سبيل التقديم

حُبِّبَت إليَّ الكِتابة منذ الصغر، فكتبتُ في فنون كثيرة، أبحاثًا ودراسات وكُتبًا، في التربية والدعوة والتاريخ والفكر وتحقيق التراث، وفي حقل الأدب كانت لي إسهامات إبداعية بين القصة القصيرة والرواية والنقد، نشرتُ -بفضل الله- ما يزيد عن ٣٥ كتابًا علىٰ مدار ١٤ سنة من يوم خط قلمي في كتابٍ.

في هذه السنوات الكثيرة كنت أتنسم فيها العبير واستروح بين الفينة والأخرىٰ بكتابة المقال، المقال تجديد.. المقال انطلاق.. المقال حرية.. حرية حتىٰ من إطار الكتاب ومخططه وهيكله وعناصره.. المقال سباحة الفكر والعقل.. بوح الخاطر والروح.

وهذه المقالات كانت تنشر متفرقة في الصحف والمجلات والمدونات والمواقع الإلكترونية وعلىٰ صفحاتي بمواقع التواصل الاجتماعي، تنشر حسب مناسباتها وموضوعاتها وحاجياتها والحمد لله كان لكل مقال منها صداه، وبلغ أثره في القارئ مداه ولقيت استحسان الكثير.

وقد أشار عليَّ بعض الأصدقاء أن أجمعها في كتابٍ يقيّد شواردها ويجمع شتاتها، ويُسَهِّل الرجوع إليها علىٰ عادة الأدباء والكُتَّاب الكبار، وأنىٰ لي أن أكون مِثلهم!

لكن وافق هذا رغبتي في الإبقاء علىٰ كل أثر كِتابي عساه يكون مِن العِلم النافع والعَمل الصالح فينفعني يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

لذلك جمعتُ ما استطعت الوصول إليه، وألفيته يستأهل النشر في كتاب، وراجعته وصوبت بعض خلله وأعددته للنشر وفق قسمين كل قسم في كتاب، أحدهما يجمع المقالات الدينية والفكرية، والآخر للمقالات الأدبية والنقدية، وهذا هو القسم الأول تحت عنوان: «**مُسْتَطَرٌ**»، ويصدر الآخر تحت عنوان: «**بُن محوج**» بإذن الله تعالىٰ..

أخيرًا صديقي القارئ.. وأنت تمر علىٰ هذه المقالات اعلم أنك تمر علىٰ سنين عُمري، وتطور فكري، واستواء أسلوبي، واختلاف طباعي وأمزجتي، فستجد العاطفة وستجد الحِكمة.. الحِلم والحدة.. الأناة والطيش.. ستجد إنسانًا.. فارفق به وأنت تنشد ضالتك.

وكتبه/

أحمد المنزلاوي

الهجرة وعقلية «الحمامة والعنكبوت»

مع مطلع عام هجري جديد، ومع بداية شهر الله المحرم، تطل مع هلاله ذكريات الهجرة الجميلة، التي تعايشنها منذ الصغر، ولعلي أتذكر مشهدًا يذكره الكثير والكثير، ويتربىٰ عليه الصغير وينشأ عليه الشباب ويردده الكبار وتتوارثه الأجيل، وينتشر في الإعلام، ويصور في اللوحات، ويجسد في الدراما والسنيما.

مشهد النبي وأبي بكر في غار ثور، ومِن الخارج يقف الكفار مكة بالسيوف وقد حثو الخطىٰ في تتبع النبي ﷺ، والنبي وأبو بكر داخل الغار، وخارجه المشركون، وتحجز بين الداخل والخارج عنكبوت نسجت خيوطها علىٰ فوهة الغار، وإلىٰ جوارها حمامتين باضتا.

لعل الكل يذكر قصة العنكبوت والحمامتين وهي قصة واهية ضعيفة لا تثبت بأي حال ولا يقوىٰ لها إسناد، قال الشيخ الألباني: واعلم أنه لا يصح حديث في العنكبوت والحمامتين علىٰ كثرة ما يذكر ذلك في بعض الكتب والمحاضرات التي تلقىٰ بمناسبة هجرته ﷺ إلىٰ المدينة، فكن من ذلك علىٰ علم[1].

بل لعل في حديث البخاري ما يثبت أن فوهة الغار كانت غير مستورة

(١) السلسلة الضعيفة (٣/ ٣٣٩).

بنسيج عنكبوت، فعن أبي بكر ﷺ قال: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ القَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ: «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١).

وفي رواية: «**مَا ظَنُّكَ، يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟**»(٢).

فأبو بكر ﷺ ينظر إلىٰ الخارج دون أن يرىٰ حمامًا أو عنكبوت، بل يبصر الأقدام دون حاجز، ويعلم أنهم لو نظروا لأبصروهم، فليس هناك من ستر!

لستُ أهدفُ من المقال إثبات ضعف القصة، فهذا معروف ومثبت وينظر في كتب أهل العلم، إنما سؤالي عن لماذا مع ضعفها ومع التحذير منها لا تزال منتشرة بين الأجيال؟

الهجرة تخطيط وتأييد:

لندع قصة العنكبوت والحمماتين جانبًا الآن، ولنقرر حقيقة هي أثبت تاريخيًا وحديثيًا من القصة الضعيفة، وهي أن الهجرة في الأصل تخطيط وجهد بشري، يحوطه التأييد الإلهي والوحي الرباني.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

ولعل المتأمل يجد أن النبي أعد خطة للهجرة محكمة، ونفذها بشكل جيد، ولعلها تتلخص في تلك النقاط:

١- يخرج النبي ﷺ من بيته في أوَّل الليل؛ لتجنُّب حصار المشركين علىٰ البيت.

٢- يهاجر إلىٰ المدينة عن طريق ساحل البحر الأحمر، وهو طريق وعر غير مألوف لا يعرفه كثير من الناس، وليس هو الطريق المعتاد للذهاب إلىٰ المدينة؛ وذلك حتىٰ يضمنوا الاختفاء عن أعين المشركين.

٣- يستأجر دليلًا علىٰ دراية بالطرق وهو عبد الله بن أريقط، وهو من المشركين، وهذا في منتهىٰ الذكاء؛ فالمشركون لن يشكوا مطلقًا في أمره إذا رأوه سائرًا خارج مكة، وهو في الوقت ذاته رجل أمين يكتم السرَّ، وفي النهاية هو صاحب مصلحة، فقد اسْتُؤجر بالمال، ولا شكَّ أن أجرته كانت مجزية.

٤- يتَّجه الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول الهجرة إلىٰ الجنوب في اتجاه اليمن، لمسافة حوالي ثمانية كيلو مترات، وهي مسافة كبيرة، مع أن المدينة في شمال مكة وليست في جنوبها؛ ولكن ذلك إمعانًا في التمويه؛ لأن المشركين إذا افتقدوا رسول الله ﷺ، فلا شكَّ أنهم سيطلبونه في اتجاه المدينة وليس في اتجاه اليمن.

٥- يذهب إلىٰ غار غير مأهول في جبل شامخ وعر الطريق، صعب المرتقىٰ، وهو غار ثور ويمكث فيه ثلاثة أيام كاملة، إلىٰ أن تنتهي قريش من عملية البحث.

٦- يقوم عبد الله بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بدور استخباري؛ فهو يأتي النبي ﷺ والصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أول الليل بأخبار مكة، وتحرُّكات القرشيين، وردود الأفعال ثُمَّ يعود إلىٰ مكة قبل الفجر، ويبيت هناك.

٧- يقوم عامر بن فهيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولىٰ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدور التغطية الأمنية لهذه العملية؛ وذلك برعي الأغنام فوق آثار أقدام الرسول ﷺ والصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثمَّ فوق آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد ذلك، حتىٰ يضيع علىٰ المشركين فرصة تتبع آثار الأقدام.

٨- والطعام حسب أمره أيضًا، بإعداد أسماء وعائشة له قبل الهجرة، وسقاية عامر بن فهيرة اللبن من الماشية يوميًا.

مع كل هذا الإعداد فإن النبي ﷺ حسن الظن بربه، مستشعر معيته، طالب لمدده، مستأهل لنصره.

قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٤٠].

عقلية «الحمامة والعنكبوت»:

نعود إلىٰ قصة العنكبوت والحمامتين، ولنغور داخل عقلية أمة أبت أن تنشغل بالتخطيط والتدبير، وباتت تمجد الخوارق والمعجزات.

ولأن الأحزان عامة والمصائب جامة والبلايا طامة، والأمة باتت منكوسة مشردة متأزمة، بين مُلِمّات ونَوائِب ونَوَازِل، كوارث ومحن ونكبات، ظلم واضطهاد وتشريد، جهل وتخلف ورجعية، وضف إلىٰ ذلك ما يحتويه معجم الفشل من معانٍ وكلمات!

جعلت أعناق المسلمين تشرئب إلىٰ معجزة تنشلهم من وحلهم، وتهبَهم نسيم النعيم بعد أن زكمت أنوفهم قازورات الهوان، لكنهم واهمون.. في غفلة عن فقه سنة الله عز وجل في التغيير.. لابد أن يعتمد المسلمون علىٰ أنفسهم، وعلىٰ سواعدهم، وعلىٰ شرعهم ومنهجهم..لابد أن يعتمدوا علىٰ «ربهم».

والاعتماد علىٰ الله يكون بذل المستطاع، وإنفاذ المطلوب، فإذا كان كسر أو خلل جبره الله «بجنود لم تروها» وليس بمعجزة حسية أو خارقة عادة يطلبها الكسالىٰ وقليلو الحيلة.

هذا هو التفسير الوحيد -عندي- لانتشار مثل هذه الحكيات، هو تسليط الضوء علىٰ المعجزة، الذي يقابله إهمال الجانب البشري التخطيطي.

لا أنكر أبدًا تأييد الله لنبيه في الهجرة ونصرته له ومعيته، وكل ذلك ثابت كما بالآية، إنما كان ذلك مع بذل الجهد وإحكام الخطط والحرص علىٰ النفع، والله يمنع عنه ما شاء ومن شاء وينصره دون الحاجة إلىٰ خارقة، وهذه التأييد وتلك النصرة لم تأتي علىٰ صورة خارقة أو معجزة حسية -كما أرادوا أن يصورها- لتكون دليلًا علىٰ أنها متاحة لكل من عمل وبذل وخطط.

٢٠١٦/١٠/٩

موقع قصة الإسلام

***

القرآن في ثلاثة مشاهد

سأعرض في هذه الكلمات ثلاثة مشاهد مع القرآن الكريم، نستعيد بها روحه، ونقف مع حالنا المؤسف معه.

المشهد الأول:

الشياطين مجتمعون في اجتماع عاجل، فقد حِيلَ بَيْنَهم وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فلا يستطيعون أن يسترقوا السمع في الملأ الأعلىٰ، كلما صعدوا وأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ.

فقالوا: مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ!

فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، حتىٰ أتوا قرب سوق عُكَاظٍ، فوجدوا المسلمين مصطفين خلف رسول الله ﷺ، يصلي بهم صلاة الفجر، وإذا بصوت القرآن يخترق أسماعهم، ويخلخل تماسكهم، ويهز مشاعرهم، فأخذوا ودهشوا، وتكأكأوا علىٰ رسول الله ﷺ ليستمعوا له، يلتصق بعضهم ببعض، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها، بعضه لصق بعض!.. وهذا ما صوره الله في قوله، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: متجمعين متكتلين عليه، حين قام يصلي ويدعو ربه ويتلو القرآن.

لتنطلق في كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض، وهنا وجدوا ما كانوا يبحثون عنه، وعلموا أن سحر القرآن الذي

يغير ما في الكيان، هو الذي غير ما في الأكوان، وقالوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ.

فانطلقوا إلىٰ قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعًا، ولا تملك عليه صبرًا، قبل أن تفيضه علىٰ الآخرين في هذا الأسلوب المتدفق، النابض بالحرارة والانفعال، والحماسة والاندفاع، وبالجد والاحتفال في نفس الأوان، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾

وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحسٍ واع وقلب مفتوح، ومشاعر مرهفة، وذوق ذواق.. (**عجب**) حقًا! يثير الدهش في القلوب، له سلطان متسلط، وجاذبية غلابة، وإيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب.. عجب! فعلًا. غير مألوف فليس بقول شاعر ولا كهانة كاهن، ولا حديث بشر، هو كلام الله العلي!

والصفة الثانية البارزة كذلك في هذا القرآن، والتي أحسها النفر من الجن، حين وجدوا حقيقتها في قلوبهم أنه ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾.. وكلمة الرشد في ذاتها ذات دلالة واسعة المدىٰ. فهو يهدي إلىٰ الهدىٰ والحق والصواب. ولكن كلمة الرشد تلقي ظلا آخر وراء هذا كله. ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدىٰ والحق والصواب. ظل الإدراك الذاتي البصير لهذه الحقائق والمقومات، فهو ينشئ حالة ذاتية في النفس تهتدي بها إلىٰ الخير والصواب.

والقرآن يهدي إلىٰ الرشد بما ينشئه في القلب من تفتح وحساسية، وإدراك ومعرفة، واتصال بمصدر النور والهدىٰ، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرىٰ. كما يهدي إلىٰ الرشد بمنهجه التنظيمي للحياة وتصريفها.

لذلك كانت الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن، وإدراك طبيعته، والتأثر بحقيقته.. ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين، إيمانًا خالصًا صريحًا صحيحًا. غير مشوب بشرك، ولا ملتبس بوهم، ولا ممتزج بخرافة، الإيمان الذي ينبعث من إدراك حقيقة القرآن، والحقيقة التي يدعو إليها القرآن، حقيقة التوحيد لله بلا شريك. ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾..

ويؤكدون علىٰ ذلك مرة أخرىٰ بقولهم ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾.. فحقيقة القرآن أنه هدىٰ، ولأنه هدىٰ سيبعث الطمأنينة في القلب والثقة في الله، أنه لن يبخس المؤمن حقه، ولن يرهقه بما فوق طاقته. ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾.. فالعوض عما يحرمه المسلم من أعراض الحياة الدنيا يمنع عنه البخس. والمدد الذي يدركه وقت الألم يهوّن عليه المشقة ويمنع عنه الرهق.

هذا هو المشهد الأول، مشهد أبطاله من مخلوقات نارية، سحرهم القرآن وأثر في وجدانهم، مشهد خفي عن أعين هذا العالم، حتىٰ

لم يدرِ النبي ﷺ به، إلا بعدما انصرفوا فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ إلىٰ آخر الآيات .. والحديث رواه البخاري.

***

المشهد الثاني:

في ظلام الليل، وسكون الصحراء.. أخذ أُسَيْد بنِ حُضَيْرٍ يلاعب غلامه الصغير يحيىٰ، وبعد مضي وقتٍ نام الغلام إلىٰ جوار فرس والده المربوط.. أما أُسَيْد فكانت عينه ساهرة واشتاقت روحه إلىٰ خالقه.. فأخذ يقرأ القرآن، واستفتح بسورة البقرة، يتلو بصوتٍ عذب حسن، يستمتع.. يبكي..تمنَّىٰ لحظتها ألَّا ينقضي الزمن من بين يديه، وفجأة اضطربت الفرس اضطرابًا شديدًا وجَالَتْ جَوْلَةً، أوقف قرأته، نظر نحو الفرس يطمئن علىٰ ولده المضطجع بجوار قدميها، فسكتت الفرس وسكنت، اطمأن بعض الشيء، جمع أنفاسه، واستعاد قراءته، يرتل، يتستمتع، لكن لم تمهله فرسه، فجالت مرة أخىٰ واضطربت، خاف علىٰ ولده، سكت ليطمئن عليه، فسكتت الفرس، عاد إلىٰ الآيات يستكملها، يرتل، يسترسل، فجالت الفرس وتحركت واضطربت، فَأَشْفَقَ أَنْ تَطَأَ ابنه يَحْيَىٰ، فقام إليه يأخره عن مكانه، وأثناء قيامه، رفع رأسه نحو السماء، فهاله ما رآه فيها، أنوار ومصابيح كثيرة مجتمعة في السماء مِثْلُ

السحابة، كانت المصابيح هذه تقترب من الأرض وتنزل من السماء، ففزع أسيد وأوقف القراءة وخَرَجَ من مكانه فلم يرَهَا.

وفي الصباح جاء إلىٰ النبي ﷺ وحكىٰ له ما حدث معه في الليل، فقال له النبي ﷺ: «**وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «**تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ**»[1].

وهذا هو المشهد الثاني، أبطاله مخلوقات نورانية، تأثروا لتلاوة سورة من القرآن بصوت رجل من أصحاب النبي ﷺ، فتنزلوا عليه من السماء، يحتشدون إلىٰ الأرض، حتىٰ إنه لو أكمل، لزادوا وانتشروا في الأرض يراهم الملائكة دون حجاب. إنه القرآن!

***

المشهد الثالث:

في حشدٍ من المشركين، وقف رسول الله ﷺ وقرأ سورة النجم، وكأنه يقرأ بيانًا تحذيريًّا إلىٰ مشركي قريش؛ فالسورة فيها من القوارع ما فيها، ولم يقدر علىٰ مقاطعته أحد، ويا ليتنا نتصوَّر هذا الموقف، ورسول الله ﷺ يقرأ القرآن بصوته العذب، وخشوعه

(١) رواه البخاري.

الكامل، وفهمه العميق لكل حرف، ثم الجميع حوله يُنصت، وكأن علىٰ رءوسهم الطير!

ومع أن الآيات تُهين آلهة قريش، وتحقر من شأنها، فإن المشركين لم ينبثُوا بكلمة واحدة؛ بل ظلُّوا يستمعون القرآن مبهورين انبهارًا كاملًا، مع ملاحظة الخطاب المباشر للمشركين في أكثر من آية؛ وذلك مثل قوله تعالىٰ: (**أَفَرَأَيْتُمُ**)، و(**أَلَكُمُ الذَّكَرُ**)، و(**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**)، فهذه كلها كلمات خطابية لهم، وأسئلة موجَّهة لعقولهم، وعليهم أن يبحثوا عن إجابة عنها.

وتمضي الآيات تكشف عن خبايا المشركين، وتفضحهم أمام أنفسهم، وتوضِّح جريمتهم الشنيعة يوم أشركوا بالله ربِّ العالمين،

وتشرح صفة الإله القدير الذي نعبده، كما تُوَضِّح عاقبة الأقوام الذين كذَّبوا قبل أهل مكة؛ ثم تسارعت وتيرة الآيات، وعلت النبرة بشدَّة! لتختتم بتلك الكلمات:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٥٦-٦٢].

حينها وجدوا رسول الله ﷺ يسجد، ويسجد معه المؤمنون، فلم يشعروا بأنفسهم إلا وهم ساجدون، سجدوا جميعًا في سابقة ليس

لها مثيل في التاريخ! وهي أن يسجد الكفار مع المؤمنين في لحظة واحدة مع رسول واحد! قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ**»(١) ويقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قَرَأَ النَّبِيُّ النَّجْمَ بِمَكَّةَ فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ، غَيْرَ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَىٰ جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هذَا. فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذلِكَ قُتِلَ كافرًا**»(٢). والشيخ المشرك الذي لم يسجد هو أمية بن خلف كما ورد في بعض الروايات.

***

كانت هذه مشاهد ثلاثة مع القرآن، اخترتها بعناية لنحدد موقفنا نحن من القرآن، مشهد الموكب النوراني للملائكة وهي تتنزل لتلاوة أحد الصحابة، مشهد الجن وهم متلبدون بعضهم فوق بعض علىٰ النبي ﷺ يستمعون تلاوته ويؤمنون به ويدعون قومهم، مشهد المشركين بقلوبهم الغلف ومع ذلك سحبوا بقلبهم مع تلاوة النبي ﷺ حتىٰ ما شعروا بأنفسهم وهم يسجدون تأثرا بالآيات مع النبي ﷺ.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

فما لنا لا نتأثر بهذا القرآن؟ ما لنا لا نخشع ولا نحتفي به؟ والله يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر: ٢١].

سمع الوليد بن المغيرة -أحد سادات قريش- القرآن فقال: «والله! إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة..وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله..وإنه ليعلو وما يُعلىٰ عليه.. وإنه ليحطم ما تحته»!!

أكان قلب الوليد بن المغيرة أرقَّ من قلوبنا؟! أيتأثر المشركون بسماعه ولا نتأثر؟ أم أن هناك أمرًا ما نحن عنه غافلون؟!

واقع الأمر أن الذي لا يتدبَّر القرآن لم يفهم علىٰ الحقيقة ما هو القرآن! والقرآن ببساطة هو «رسالة»! إنه رسالة من ربِّ العالمين إلىٰ البشر يدلُّهم فيها علىٰ ما يُصلح دنياهم وآخرتهم، وهو ما ذكره الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله العميق: «إنَّ مَنْ كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبَّرونها بالليل، ويتفقَّدونها في النهار».

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إذا سمعت الله -جلا وعلا- في كتابه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، وأعطها أذنك فهي إما خير تؤمر به، أو شر تُنهىٰ عنه».

وقال أيضًا: من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله، فليعرض نفسه علىٰ القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، فإنما القرآن كلام الله.

وقال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طهرت قلوبكم، ما شبعت من كلام ربكم».

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: أما تستحي أن يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفًا حرفًا حتىٰ لا يفوتك شيء منه، وهذا كتاب الله أنزله إليك.. انظر كم فصَّل لك فيه القول.. وكم كرره عليك لتتأمل وتتدبر، ثم أنت بعد كل هذا معرض!! أفجعلت الله أهون عليك من بعض إخوانك؟

يزورك أخوك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلىٰ حديثه بكل قلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كُفَّ، وها هو الله يقبل عليك ويتحدَّث إليك وأنت مُدبر مُعرض مشغول.. أفجعلته أهون عندك من بعض خلقه؟!

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤].

١٧ مايو ٢٠٢٠

موقع قصة الإسلام

موقع رقيم

جيل الدروشة «الكيوت»

في عالم الأفكار-كما في عالم الأزياء- «صيحات»، و«تقاليع» تُفْرَضُ لتستلفت أنظار الناس بعيدًا عن الحقيقة، وتستقطب اهتمام الطليعة الفعالة في الأمة بعيدًا عما ينبغي أن يشتغلوا به من واجب الوقت، أو تَفْرِضُ نفسها علىٰ الساحة الفكرية، التي صارت في كثير من البلدان خاوية إلا من إعلام مضلل، أو مطبوعات لا تخضع لرقابة «شرعية».

ومع غياب العلماء، أو تغييبهم يُفتقد الانضباط، ويكثر اللغط، ويُدلي كلٌّ بدلوه.

ولعل أحدث هذه «الصيحات»، وآخر «التقاليع» ما أسميه «الدروشة الكيوت»، وهي ظاهرة تحتاج إلىٰ تمعن وتحليل، وأقصد بها توجه الشباب والفتيات إلىٰ التدين بطريقة صوفية بشكل أنيق شبابي جدًا، من تواجد في ساحات الذكر، والرقص علىٰ المولاوية، ولف السُبحة علىٰ العنق أو اليدين، والاستماع إلىٰ الأناشيد والمديح النبوي، وكثرة الحديث عن العشق الإلهي.. إلخ.

وتجاوزت الظاهرة الطبقة المتقشفة الفقيرة، إلىٰ الطبقة النخبوية والثقافية، فقد قذفت المطابع -ولا تزال- بعشرات الروايات والقصص التي تُفيض في الحديث عن العشق الإلهي والمحبة

وسلامة النفس، وإن كان اسمها (حسنًا) إلا أنها سيقت بمنهج مبتدَع دخيل، وأسلوب عجيب غريب، وتهافَتَ الناس علىٰ اقتنائها، والتعويل علىٰ ما فيها.

(١)

لعلنا نرصد هذه الظاهرة الأدبية انطلاقًا من رواية «قواعد العشق الأربعون»، التي صدرت عام ٢٠١٠م، وهي رواية للكاتبة التركية إليف شافاق، تدور الرواية في خطين زمنيين متوازيين، الخط الزمني الأول: يمثل الأحداث التي تمر بها «إيلا»، في الزمن المعاصر، وهي سيدة أمريكية علىٰ مشارف الأربعين، تعيش حياتها الرتيبة الاعتيادية مع أبنائها وزوجها «ديفيد» طبيب الأسنان الناجح.

أما الخط الزمني الثاني: فيقع في القرن الثالث عشر، ويحكي قصة اللقاء العجيب بين الفقيه «جلال الدين الرومىٰ» والدرويش المتنقل المعروف باسم «شمس الدين التبريزي» وكيف أنهما معًا جسدّا رسالة شعر الحب الخالدة، ثم ما تلا ذلك من أحداث عاصفة، انتهت بمقتل «التبريزىٰ» وتحول «الرومي» إلىٰ أهم شاعر صوفي في التاريخ.

فخرج من قفطانه الديني الثقيل إلىٰ لباسه العادي، وهو يدعو إلىٰ وحدة الأديان، وتفضيل العشق الإلهي علىٰ غيره من متع الحياة.

فابتدع رقصة الدراويش، وتحرر من جميع القيود والقواعد التقليدية والدينية.

و«الرومي» كشخصية تاريخية من الباطنيين الذين يؤمنون بالحلول، والاتحاد، ووحدة الوجود، وأن الله هو عين المخلوقات، وكذا وحدة الأديان. ومن كلامه: (مسلم أنا، لكني نصراني، وبرهمي، وزرادشتي)!

ثم يتقاطع الزمانان، الحالي والماضي، فأحوال «التبريزي» قد غيرت حياة «إيلا» إلىٰ الأبد، فتحولت من مجرد امرأة عادية راكدة إلىٰ عاشقة مجنونة تضحي بكل شيء في سبيل الحب، كل شيء حتىٰ وفائها لزوجها، وعرضها، فتخونه تحت مسمىٰ العشق!

وبالنهاية تندمج القصتان كشيء واحد متناسخ، ليبزغ القديم حيًا في أرواح المعاصرين، وليعالج القديم الحديث في توافق وتناسق.

لتؤكد المؤلفة -بأشكال عدة- أن القرن الحادي والعشرين، لا يختلف كثيرًا عن القرن الثالث عشر. فهما عصرا صراعات دينية إلىٰ حد لم يسبق له مثيل، وعصران ساد فيهما سوء التفاهم الثقافي، والشعور العام بعدم الأمان والخوف من الآخر.

وفي أوقات كهذه تكون الحاجة إلىٰ سكرة الحب أشد من أي وقت مضىٰ.

فالرواية تبدأ وتنتهي -في ظاهرها- برسالة مفادها: المحبة، والسلام، والعفو، والأمل، والإصلاح الداخلي... وغيرها من المعاني التي يفتقدها البعض في تلك الظروف العصيبة التي تمر بها الأمة الإسلامية، والتي اشتد فيها البلاء والمحن وتوالت النكسات في أعز من وما نملكه، وهو الشيء الذي يفتقده كثير من الشباب ويبحثون عنه في نفس الوقت!

وعلىٰ نفس نهج هذه الرواية (البديعة فنيًا) سار كُتاب كُثر (ومنهم أصدقاء أعرفهم)، ونشرت كثير من الروايات تحت مسمىٰ الأدب الصوفي الذي يتسع فنيًا لكثير من فنون الدراما، ولا أحب أن أعدد أسماء، يكفي أنهم جميعًا تشابهوا في الفكرة.

ولا شك أن هناك رواجًا لمثل هذه الكتابات، ولا أبالغ إن قلت أن هناك دعمًا غربيًا وشرقيًا لها، حتىٰ وإن لم يشعر كُتَّابُها بذلك، وعن ذلك يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله:

(ومما له دلالته: أن العالم الغربي الذي يحارب الإسلام يشجع الحركات الصوفية، ومن أكثر الكتب انتشارًا الآن في الغرب: مؤلفات «محيي الدين بن عربي»، وأشعار «جلال الدين الرومي».

وقد أوصت لجنة «الكونغرس» الخاصة بالحريات الدينية: بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية؛ فالزهد في الدنيا،

والانصراف عنها، وعن عالم السياسة: يضعف -ولا شك- صلابة مقاومة الاستعمار الغربي...)[1].

وبالفعل بأقل تجربة إحصاء تجد أن كتاب مثل «مثنوي» لجلال الدين الرومي (الذي كتبت عنه الرواية السابقة)، يتهافت عليه الشباب والمثقفون كل دورة معرض للكتاب حتىٰ ينفذ في أيامه الأولىٰ، وكذلك ما يشبهه من كتابات، وما يسمىٰ بأدب التصوف من روايات وقصص وأشعار أهمها أعمال د. يوسف زيدان التي كانت سبَّاقة في هذا المجال.

(٢)

بمثل هذه الروايات تمت عملية تصالح بين تدين الآباء الصوفي المنحرف، وحداثة الأبناء التي تسخط علىٰ التدين وربما انتهت بهم إلىٰ الإلحاد، وهذه الثنائية كانت حاضرة بقوة في روايات نجيب محفوظ مثلًا، حيث انقسام المجتمع قسمين: جيل قديم يُمثله شيوخ دين صوفية خرافيون، في مقابل جيل طُلَعَة مُقبل علىٰ أسباب الحياة المادية، تضاءلت عنده معالم الإسلام الحق، حتىٰ ركب موجة الإلحاد، فرارًا من أحوال الفريق السابق.

(١) من مقالة «الإسلام والغرب».

فالثوب الجديد الذي يبرز به التصوف هذه السنوات الأخيرة غريب ولافت للنظر، فهو يزاوج بين قمة الخرافة فكرًا وممارسة وخطابًا، وبين الخطاب العقلاني والحداثي العلماني في نفس الوقت!

فإذا كان كلنا -أو أغلبنا- علىٰ الأقل قد تَعوَّد علىٰ أن الطرق الصوفية هي ظاهرة تقتصر -أو تكاد- علىٰ أوساط العوام الأميين وأشباه الأميين، حيث ينحصر الخطاب الصوفي في ترديد الخرافات عن كرامات شيوخهم ومجاذيبهم، وينحصر نشاطهم الصوفي علىٰ الموالد والحضرات، ويغلب علىٰ رموزهم السمت التقليدي في الهيئات واللباس والتظاهر بالتدين، فإننا الآن نشاهد حركة تصوف نشطة تخالف ذلك النمط التقليدي مخالفة شديدة في ظاهرها وإن كانت تتفق معه في أصوله، فالقائمون علىٰ هذا التصوف الجديد مثقفون، وأدباء، وشعراء، ودعاة، وأكاديميون في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية وغيرها، لهم بريق لامع، وحُسن طلة، ومنطق حسن، وعرض جذاب، وعاطفة جياشة، وابتسامة ساحرة، وقلم موهوب، وكلمات مؤثرة.

فبأقل متابعة لكثير من حسابات المشاهير والمثقفين من الكتاب والأدباء تستطيع رصد كثير من مقولات وأشعار في العشق الإلهي، وأن الله يُحبنا، ونحن نحبه، فالمسألة كلها تتلخص في الحب!

حتىٰ أن زميلة عزيزة كتبت يومًا «ربنا عرفوه بالحب»! وكأنك أمام وله وغرام مجنون ليلىٰ والعذريين، فلم يحفظوا الله كماله وجلاله، وإن أقل قواعد المنطق تدلل بقوة أن الحب نتاج المعرفة، فكيف تحب من لا تعرف؟!

وهكذا.. بلا عمل ولا جهد ولا صدق إيمان.. كل ما عليك أن تُحِب وتُحَب!

فأنت أيها العاشق محبوب رغم أن أحدًا لن يفهم شيئًا عن حبك...

أنت مختار مصطفىٰ بذاتك ولذاتك، بكل ما تحمله من آثام وأوزار وتخلف عن ركب العاملين العابدين، المقيمين لحدود الله المجاهدين في سبيله.

أنت كما أنت! يمكنك أن تدخل جنة نعيم، ودار مقيم، بلا أي كلل ولا اجتهاد ولا تعب، سوىٰ حزمة من المشاعر الجياشة في عشق الإله، والسكر والتماهي فيه!

والجهاد الحقيقي هو فقط جهاد نفسك، فلا تنظر لإصلاح مجتمعك ولإجهاد الباطل حولك.

فالحقيقة إذًا ليست في العمل ولا في اتباع الشرع، بل الحقيقة ستجدها في الزهد والرمز والوهم والتماهي في العشق، وأما تغيير

واقعك وتحرير وطنك وإصلاح أمتك وتحطيم كل شر لا يكون إلا من خلال داخلك فحسب وليس في خارجها.

هذه النظرة الصوفية التي نراها تعرض نصف الحقيقة فتعتمد علىٰ الترغيب دون الترهيب، والنية دون العمل، والعبودية لإله مطلق حال بالعالم، لا يُعرف بذاته ولا بصفاته؛ لأنه -أصلًا- في كل ذات، وابتداع دون اتباع للرسل، تتجسد بتفاصيلها وسردها في رواية قواعد العشق الأربعين، وما تلبث أن تهدم حتىٰ هذا النصف في قواعدها التي لا أجد وصفًا لها سوىٰ أنها -في الكثير منها- قواعد كفرية تجسد التيار الصوفي الباطني المتطرف الذي يؤمن بعقيدة وحدة الوجود والحلول والاتحاد ووحدة الأديان.

كما يرىٰ مركزية الكون ومعياريته في مكنون الذات الإنسانية، لا في الأحكام والشرائع الربانية المنزّلة.

كما يتضح أيضًا التعدي -جليًا- علىٰ الذات الإلهية، ووصف الله تعالىٰ بما لا يليق بكماله وجلاله.

(٣)

هذا علىٰ المستوىٰ الأدبي، ومثله علىٰ المستوىٰ الفني التمثيلي، فهناك أيضًا أعمال كثيرة تُوجه إلىٰ هذا النوع من التصوف، كالفيلم التونسي«بابا عزيز»، والفيلم الأجنبي «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» الذي قام ببطولته الممثل عمر الشريف، وفيلم «ألوان

السما السابعة» بطولة فاروق الفيشاوي وليلىٰ علوي، ثم ظهرت أكثر في أعمال خالد الصاوي الدرامية الأخيرة، فمن تابع مسلسل «تفاحة آدم» فجع بقدر هائل من قلب الحقائق والعبث بها، لكن اللافت للنظر فيه: اشتماله علىٰ شيء من الشطحات الصوفية، حيث احتفىٰ العمل بتوبة بطله محترف النصب، بفضل علاقة حب جمعته بفتاة متصوفة دأبت علىٰ الغناء في الموالد وحلقات الذكر ! تلك الشطحات الصوفية العارضة تحضر بصورة أوضح وأعمق وأوسع في مسلسل «الصعلوك»، فالمسلسل يحفل بـ«رؤىٰ» تتراءىٰ لصعلوك يلعب «الصاوي» دوره، تنقله إلىٰ التواصل في المنام واليقظة مع «ولي» ميت يدعىٰ «العدوي»، يقوم الصعلوك علىٰ خدمة مقامه في أحد الأحياء الشعبية منذ سنوات. وكثيرًا ما يظهر العدوي للصعلوك بصحبة امرأة متبرجة نعرف من العمل أنها كانت غانية تُباع وتُشترىٰ وتهدىٰ متنقلة من سيد لآخر، إبان هيمنة الإنكليز علىٰ مصر أيام أسرة محمد علي، وأن العدوي الذي كان يعمل في حياته رئيس عصابة شعبية مسلحة يقوم بإنقاذها وتحريرها، لتبدأ بينهما قصة حب عاصفة، يؤكد «الولي» للصعلوك أنه «لن يعرف نفسه أو يعرف ربه» إلا إذا عايش قصة حب مثلها!

وبطبيعة الحال، بغية تحقيق سبي المشاهد وإبهاره بروعة التوجه الصوفي، يكتظ العمل بالمصادفات العجيبة المثيرة، والكرامات المعجزة المزعومة، فالصعلوك يتمتع بقوة بدنية خارقة، نراها تتجسد وهو يطلب المدد من سيده العدوي، وينجو من كثير من المآزق وتتفتح أمامه الأبواب الموصدة، ويتراكض علية القوم للدفاع عنه ببركة «وليه» الذي يظهر له عند الملمات لإرشاده إلىٰ ما يتوجب عليه عمله!

أما عن الحضور المتزايد للفنانين والمبدعين لعوالم الصوفية في حفلات الإنشاد الديني، والعزف الصوفي، إلىٰ رقص التنورة... فحدث ولا حرج، وكثير منهم مشهور بتصوفه الشخصي.

(٤)

أما المستوىٰ الإعلامي الدعوي.

فقد أنتجت ظاهرة الدعاة الجدد خطابًا معاصرًا متطورًا في الشكل والعرض، بداية من الأستاذة كريمان حمزة والحاجة عبلة الكحلاوي والحاجة ياسمين الحصري مرورًا بربيبها «عمرو خالد» (الدكتور الآن) إلىٰ تلاميذه من أمثال «معز مسعود» و«مصطفىٰ حسني»، هذا الخطاب المبني علىٰ المشترك الإنساني ومكارم الأخلاق والمشاريع الخدمية والتعايش... وكل ذلك

حسن، إلا أننا لا نوافق علىٰ تصديره للناس علىٰ أنه هو الدين فقط، دون أن يكون له سياج حامٍ من تشريعات وعقائد واضحة ثابتة لا تميع فيها! وهو ما غفل عنه هؤلاء الدعاة أو تغافلوا.. وبالطبع لا نستطيع أن نشك في نيتهم الحسنة، وإرادتهم للخير، وهذا يلمسه كل من كان علىٰ مقربة منهم! أو عرفهم معرفة شخصية.

إلا أن كل حدث في حياة الناس تجد له صُنَّاع وتجد له رُكّاب، تجد من جد واجتهد، وتجد من جاء بليل وقطف الثمرة، تجد من جاهد ومن استغل الحدث ووجهه.

فإن كان عمرو خالد شخصية دعوية حركية عاملة طموحة، يسعىٰ للتميز دائمًا، وكان يتجهز لفرصة يحقق من خلالها ذاته، فلما جاءته بغياب أحد الدعاة عن درسه بنادي الصيد، لم يضيعها، فقفز عمرو مكانه فورًا، ثم كانت بدايته في مسجد الحصري، ونقلته إلىٰ الفضائيات علىٰ يد صالح كامل رجل الأعمال، ومع محاولة توظيفه إلا أنه استطاع أن يستقل بنفسه فيما بعد.

أما الآخرون فقد خرجوا إلىٰ ساحة مهيئة لخطابهم، فبدءوا يعملون علىٰ أرض مجهزة، وجمهور حاضر متشوق لخطاب كخطاب عمرو خالد.

ومن هنا ظهر «مصطفىٰ حسني» ودعا إلي نفس دعوة عمرو خالد وبنفس الأسلوب تقريبًا، إلا أنه تميز عنه بتحريه ما يقول، وإجلاله للمشايخ، ودعوته إلىٰ التفقه علىٰ أيدي العلماء، والقراءة في كتب السلف، الشيء الذي أكسبه ثقة في الوقت الذي بدأت الثقة تنسحب من عمرو خالد لمغالطات كثيرة في خطابه العلمي.

ثم كان أول صدام له في برنامجه «خدعوك فقالوا» وحديثه عن البدع وتجويزه لكثير من بدع الصوفية، الشيء الذي كشف عن أن له توجه صوفي لا يصرح بالدعوة إليه ولا ينسب نفسه إليه صراحةً.

(٥)

ومع مصطفىٰ حسنىٰ ظهر «مصطفىٰ عاطف» منشد شاب صوته عذب، استغل صوته في تقديم مدائح نبوية، وقصائد في حب الله، ولكن بشكل الكليبات والحفلات الغنائية، أحيانًا بالفصحىٰ وكثيرًا بالعامية، فأثرت في الشباب والبنات وهيجت عواطفهم وصارت له شعبية ضخمة (أغلبها من البنات)، وكان واضح من هيئته -رغم صغر سنه- توجهه الصوفي بالمديح الذي يقدم، والكلمات الصريحة بالتصوف، مثل: (**الله الله دراويش دراويش.. أنا سايب إيدهم ماتسبنيش**)، كذا مظهره الأنيق، المشهور المسبحة التي تقوم بوظيفة «الحظاظة» علىٰ يديه، في تزاوج بين

التصوف الروحي والشكل «الكيوت» المحبوب لدىٰ الشباب خاصة البنات من معجبيه.

(٦)

والغريب أن وراء هذين المصطفيين شخصية واحدة في ظني أنه من صنعهما ليزاحما الساحة الإسلامية لبث أفكاره المتصوفة: محمد عوض المنقوش ليبي متصوف، يعد شيخًا لهما، أينما يوجههما توجها كعرائس المريونت، فقد شارك في إعداد برنامج «خدعوك فقالوا» (هكذا كتب في «تتر» البرنامج، وإلا فأظن أن البرنامج ما هو إلا كتاب المنقوش المسمىٰ بنفس الاسم)!

وكذا فمصطفىٰ عاطف مرتبط بالمنقوش -أيضًا- جدًا وقدم معه برنامج «صُحبة»، وشارك معه في ملتقيات كثيرة.

وهما يصرحان الآن بهذه العلاقة ويتفاخران بأدب شيخهما وحسن خلقه، والحق أنه كذلك، لكن ليس بالأخلاق الحسنة وحدها يعبد الله! لا بد من عقيدة سليمة، وعبادة صحية، ومعهم الأخلاق الحسنة.

والمنقوش في بدايته كان من أهل السنة وكانت له دار نشر لكتب السنة، ثم حنق عليهم ودرس علىٰ يدي د. علي جمعة (المفتي السابق والمتصوف الكبير) فغير في فكره وأثر فيه، وربما يكتمل

المشهد إذا علمت أن الشيخ أسامة الأزهري أيضًا من الداعمين لهما وهو أيضًا تلميذ د. علي جمعة ومعروف بتوجهه الصوفي.

وبذلك يكتمل المشهد لترىٰ منهجية علمية عملية لتوجيه الشباب والفتيات إلىٰ التصوف، ليس بالشكل التقليدي القديم، ولكن بشكل حديث مزدوج بالفن والأدب والإبداع والحركة والنشاط والشكل الجميل الجذاب «الكيوت»!

ولعل ذلك استجابة إلىٰ دعوة مرصد الفتاوىٰ الشاذة والتكفيرية التابع لدار الإفتاء المصرية، إلىٰ نشر التصوف وتفعيل دوره في مواجهة التطرف والإرهاب، وذلك في تقريره الثلاثين الصادر بعنوان «التصوف الصحيح ودوره في مواجهة التطرف»!

(٧)

في مثل تلك الظروف -التي تمر بها البلاد- قد تلجأ القلوب المتعبة للفرار من الظلم والغدر والشحناء والعقاب المجتمعي الذي لا ذنب لهم فيه.

تلجأ إلىٰ البحث عن شيء يهدهد مشاعرها، ويحيي عواطفها، ويُسلي أحزانها، ويرفع عنها كللها وما تعانيه.

فهم يعيشون في خواء روحي، يحتاجون إلىٰ تعبئته في الوقت الذي تصارعت فيه التيارات الإسلامية، وشُوه بعضهم وخُون الآخر وفشل الكثير .. فكانت العبادات الصوفية ملجأهم لتفريغ طاقتهم

الروحية المكبوتة، وهذه الطريقة ليس فيها جهاد أو صراع لا مع محتل ولا ضد ظالم، وبالتالي لا خسائر فيها بالنسبة لهم، بالإضافة إلىٰ أن الترفيه الحاصل من خلال التنزه والجري والتقاط الصور الأثرية والتذكارية والرقص والهزّ علىٰ أصوات الدفوف، سوف يشعرهم بنشوة مزيفة يظنون أنها هي الروحانية التي ينشدونها!

ثم هم بعد ذلك لم ينفكوا عن دُنيتهم بما فيها، فهم يمارسون أعمالهم في الدنيا كما تعودوا، ويظنون أن هذه «الحفلة الصوفية» الأسبوعية أو الشهرية تؤدي المطلوب منهم للآخرة !

وبذلك ينتشر التصوف بين الشباب والفتيات وفي أواسط المثقفين!

(٨)

ليس الهدف من هذا المقال تشويه أحدٍ أو النيل منه، بل الهدف إيقاظ الوعي والإدراك للواقع الذي نعيشه، فلا أستطيع أن أحدد سببًا واحدًا لهذه الظاهرة، أو أن أُلقي باللوم علىٰ شخص معين، فالأحداث الكبرىٰ لا يقوم بها شخص واحد، ويصعب تعليلها بسبب واحد، ولا تظهر بين عشية وضحاها!!

يكثر الفاعلون، وتتعدد الأسباب، وتكون فترة تكوين ممتدة عبر عقود الزمان، تبدأ بصراع فكري بين النخبة يظهر أثره تدريجيًا في واقع الناس. كما حدث في الآونة الأخيرة.

وليس حلًا أن نخرج عليهم أو أن نجهز علىٰ أجهزتهم، فالحل - في وجهة نظري- هو أن نُخرج رجالًا كرجالهم، ونُنتج خِطابًا كخطابهم، ونمارس آليات وأدوات كأدواتهم..

فهل من المعقول أن يكون الأمل في صناعة الوعي الشعبي للمسلمين مرتبطًا بمقدرتهم علىٰ فهم كتب التنظير الإسلامي المعقدة ؟

كيف نحول هذه الكتب التنظيرية الجامدة إلىٰ مفاهيم ثابتة راسخة في عقل كل شخص بسيط من الشعب المسلم ؟

لا بد من تخفيف القالب دون تخفيف المفاهيم.. لا بد من جعلها أكثر قربًا من الشعب لا من النخبة ..

هنا يجئ دور الأدب و الفن.. دوره في أن يحول هذا التنظير الجامد إلىٰ مُغلف براق لامع يسرُّ القارئين ويخطف الأنفاس ويحقق له الشعبية ..

هذه الخطوة ما هي إلا تمهيد للخطوة الأهم علىٰ الإطلاق: تحويل الأدب إلىٰ سينما ودراما.. إلىٰ عوالم مرئية يسهل

للمُشاهد التفاعل معها دون ضرورة تعلمه للقراءة وصرف أوقات طويلة لها.. إن هو إلا فيلم ساعتين يبقىٰ في الذاكرة إلىٰ الأبد.
نحتاج إلىٰ شيخ كالمنقوش، ينسىٰ نفسه، ويهتم بفكره ودعوته، في إنتاج جيل جديد، بمفاهيم جديدة، وآليات حديثة، وأساليب متنوعة، يحركهم من خلف الستار، فيصيروا نجوم الحدث والحديث.

٢٠١٦/٧/١

موقع ساسة بوست

فقه الابتلاء

كنت قد رأيت منشورًا لأحد أصدقائي الأحبَّة، ابنته مولودة بمرض ما، تألمتُ كثيرًا له ولها وإذا به في منشوره هذا وسابقه بعض ما يلي:
يسأل عن الحكمة الإلهية العظيمة التي ستعرفها البشرية بإصابة طفلة لا ذنب لها في الحياة بمرض ليس له علاج وسيؤثر عليها مدىٰ الحياة!!
ما الدرس الذي سنتعلمه ونحن نرىٰ طفلة تتعذب كل يوم أمام أعيننا؟

ولو كان هذا ابتلاء واختبار، فلمَن؟ ماذا تفهم هي وماذا صنعت لتبتلىٰ وتختبر؟

وإن كان ابتلاء لأبيها ولأمها مثلًا، فما ذنبها هي؟ لمَ تتعذب بدلًا منهما طوال عمرها؟ ألم يقل الله «**لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**»؟؟

ولو جزمنا أن هذا الابتلاء لأبيها ويستحقه؛ ماذا إن توفيت؟ أتكون عُذبت هباءً ودون جدوىٰ؟

إلىٰ آخر ما طرحه الصديق من تساؤلات..

والحقيقة لم أهنأ بنومٍ ساعتها.. وأنا أعذره لأن مصابه عظيم، وهو بالفعل يعاني.. ولا أدري إن كنتُ مكانه ماذا كنت أصنع؟

فكتبت أتساءل معه:

- من أين علمتَ أنها ستعيش وتموت بالمرض نفسه؟

- لعلها لا تعيش ويرحمها ربُها، أو يعافيها وتعيش؟ وهو قادر؟ وأسأله سبحانه أن يشفيها.

لسنا نعلم ما في الغيب لنحكم.. ولكنا نتعامل مع اللحظة الحالية.. والباقي ظنون، ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾[الأنعام: ١٤٨].

- ولو أن الله توفاها (أسأل الله أن يحفظها)، لعل ذلك ذهاب شر ويخلف الله عليكم بولد بار صالح، ألسنا نذكر قصة موسىٰ والخضر وقتل الأخير للغلام، ﴿**وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ**

أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١].

هل عرفتْ أم الغلام أو أبوه أن قتل وَلدها خير لها؟ هل أخبرها الخضر؟

الجواب: لا.. بالتأكيد قلبها انفطر عليه، وأمضت الليالي الطويلة حُزنًا علىٰ هذا الفتىٰ الذي ربته سنين في حجرها ليأتي رجل غريب يقتله ويمضي.. وبالتأكيد هي لم تستطع أبدًا أن تعرف أن الطفل الثاني كان تعويضًا عن الأول، وأن الأول كان سيئُول كافرًا طاغيًا؟

الصورة قد تكون عندنا غير مكتملة، والحُجب بين الغيب والحاضر كثيرة لا نعلم منها إلا بقدرٍ.

ثم أقول:

- وهَبّ أن ابنتك عاشت بمرضها، مَن قال: إنها ستعيش بالعذاب المتخيل؟ أوليس الله بقادر أن يمدها بقوة تحمل، وتكيف، ورضا.. ربما يكون أقوىٰ مما أنت فيه.. وهو يقول سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

وإننا نرىٰ من أهل الابتلاء كبارًا وصغارًا مَن يقوون علىٰ آلامهم وأوجاعهم ومنهم من يضحك ويلعب ويأنس، وإننا لنتخيل أن عُشر ما به يهز الجبال هزًا ولا يتحمله أحد. التصور المجرد دون اعتبار المدد والعون الإلهي لا يكفي.

وما ذنبها لتبتلىٰ؟

سأقول لك: وما ذنب كل مبتلىٰ؟ وما ذنب المرضىٰ؟ وما ذنب أهل الموتىٰ؟ وما ذنب آدم أن يُختبر بأكل الشجرة؟ وما ذنب إبليس أن يؤمر بالسجود ويأبىٰ؟

الإجابة الوحيدة: إنها حكمة الله.. وليس كل ابتلاء عقاب.. وأشد الناس بلاء الأنبياء؟ ما ذنبهم؟ لم يعصوه؟

الابتلاء قد يكون للقربىٰ، قد يكون لابنتك منزلة عند الله أعظم من كل الأصحاء في الدنيا، وقد قال النبي ﷺ للمرأة السَّوداء المصابة بالصرع: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْت الله تَعَالَىٰ أَنْ يُعَافِيَكَ**» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ[1].

قد يكون لك أنت وأمها منازل عظيمة، وإن العيش عيش الآخرة، وما سيمر من أيام وسنين لا يعادل نعيم الخلد في الجنة.

- قد يكون الابتلاء لدفع الناس بعضهم ببعض، إن الله ليس دومًا يبتلي ليعذب؛ إنما قد يبتلي ليمحص ويطهر، ليميز الخبيث من الطيب، ليميز المتسخط من الراضي، ليميز الشاكر من المتضجر، قال ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[2].

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني.

- تقول لي: أليس يقول الله إنه أحسن الخالقين.. وأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم؟ وأقول: يا صديقي أحسن الخالقين من حيث إن هناك خالقين يعجزون وهو قادر فهو أحسنهم جميعهم، ومن حيث الأصل وليس العارض.. فالأصل الصحة والمرض عارض.. كما أن الأصل استقامة الأرض والزلازل والبراكين عوارض، ومن حيث إنه صور الإنسان بما هو أفضل من غيره من الكائنات.

- ثم ما لنا نتصور الإله وكأنه حارس خاص أو مدبر شخصي، لا بد أن يكون التصور أكبر وأعظم، الله يدبر أمور الكون كله ويسيره ويحكمه ويرعاه بحكمته، قد يبتلي لا من أجلك ولا من أجل أمها ولا من أجل الطفلة، ربما من أجل الأمة ككل، من أجل أن يختبر الأطباء في مهنتهم، والزعماء في سياستهم، والأغنياء في نفقتهم، والأهل في رعايتهم، والجيران في تعاطفهم والمؤمنين في ربهم.

- والله كما أنه هو المبدع وهو الرحيم فهو الحكيم المحصي، له أن يرحم وله أن يختبر، وله أن يؤلم من أجل أن يرحم، كما أن الطبيب يؤلم المريض لذهاب مرض أشد أو لوقاية من فيروس ما.

ثم لماذا الاختبار والابتلاء من الأساس؟ لأننا خلقنا أحرارًا لنا تصرف وإرادة ولا معنىٰ للحرية دون أن يكون لنا حق التجربة

والخطأ والصواب، هذا يا أخي علىٰ مستوىٰ الكون وليس علىٰ مستوىٰ شخصك وابنتك.

علينا أن نعمق إيماننا بالله ونسلم أمورنا له ونأخذ بكل أسباب دفع البلاء ونصبر علىٰ ما لم نحط به خُبرا..

وأخيرًا أسأل الله أن يربط علىٰ قلب كل مبتلىٰ، وأن يشفي ابنتك يا صديقي وكل مريض.

وأن نردد جميعًا قول الله ﷻ:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

٩ مارس ٢٠١٩

سر القوة الخفية

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]..

هذه الكلمات القرآنية الثلاث لخّصت لنا جوهر الإنسان، فهو ضعيف في نشأته: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٨-١٩]، وضعيف في عِلمه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، ضعيف في شهوته، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤].

ضعيف!، ينهار لأي خبر سيئ، واهِنٌ إذا أصابه مرض، خَائِرٌ إِزَاء الفقر، ضَئِيلٌ بين الأقوياء، هَشٌّ أمام الزلازل والكوارث.. خاضِعٌ لشيطانه وهواه.. ضعيف.. تلك هي الحقيقة!

وكل إنسان يظل محتاجًا لقوة يقهر بها ضعفه، ويستمد منها أثره، ويشكّل بها حياته ومستقبله، لذلك رغَّب النبي ﷺ في هذه القوة فقال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»[1].

والملاحظ في عامة أوساط الناس انحصار مفهوم الحديث في القوة الظاهرة المكتسبة في بدن الإنسان فحسب!، وثمة معنىٰ أعظم الأثر وأكبر حادٍ إلىٰ صناعة المجد وأعظم الأسباب في تحقيق القوة ومع ذلك يتغافل عنه الناس، ولا يأخذ من حياتهم الحيّز الذي شغله معنىٰ القوة الظاهرية في بناء أنفسهم، هو قوة الروح وتغذيتها بالإيمان والاتصال بالله.

ونضرب مثلًا علىٰ ذلك بحديث النبي ﷺ إذ يقول: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ**

(١) رواه مسلم.

عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّىٰ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»(١).

أريت كيف أن هذا المعنىٰ يكسبك قوة إضافية تجعلك قادرًا علىٰ مغالبة كل الظروف والعراقيل التي تعترض لك في حياتك، وتفسح لك الطريق نحو التحليق للمعالي، وكيف أن هذا المعنىٰ إذا فُقد من حياة إنسان أصبح «**خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ**».. هذا هو سر القوة الخفية..

هذه القوة الخفية التي يوجه إليها النبي ﷺ ابنته فاطمة وهي تشكو إليه ضعفها من مشقة أعمال البيت وتَسْأَلُهُ خَادِمًا يساعدها في ذلك، فَقَالَ ﷺ لها: « **أَلاَ أَدُلُّكِ عَلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْ خَادِمٍ تُسَبِّحِينَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَتَحْمَدِينَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَتُكَبِّرِينَ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ حِينَ تَأْخُذِينَ مَضْجَعَكِ**»(٢).

فتأمل هذه العلاقة بين شكوىٰ فاطمة من الإرهاق الجسدي التي تتعرّض له كل يوم في بيتها وبين تلك الأذكار، ولولا أن لهذا الذكر فائدة كبرىٰ في تقوية الإنسان علىٰ عمله وجهاده في الحياة لما كانت

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

الوصية به في هذا المقام.

وهو نفس المعنىٰ الذي دعىٰ إليه نبي الله هود عليه السلام قومه، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ٥٢].

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ... يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ، فما علاقة الاستغفار بالقوة؟!

سر القوة الخفية:

السر في ذلك هو تقوية النفس والروح بالاتصال بالله عز وجل، فالإنسان خلقه الله من جسد وروح ولكل منهما مصدره وغذاؤه، فالجسد مصدره الطين، وغذاؤه كل ما يصل إليه من أكل وشرب وشهوة، أما الروح فمصدرها نفخة علوية من الله عز وجل وغذاؤها كل ما يوصل إلىٰ الله من صلاة وصيام وقراءة قرآن.. بالأصح: **عبادة الله**.

مشكلتنا الحقيقية هي إصرارنا علىٰ أننا مكونون من مادة واحدة وهي الجسد، فنسينا الروح (أو تناسينها) وأخذنا نُغذي الجسد، فلو ظل شخص بلا طعام ولا شراب مدة، سيموت بلا شك!

وهكذا الروح فالإنسان إذا لم يعبد الله ستموت روحه، ولكنها تموت ببطء عكس الجسد الذي يموت بسرعة مما يجعل الإنسان يظن أن جسده فقط هو الذي سيموت فلا يتركه أبدًا، ويظل يُغذي

فيه ناسيًا أن له روحًا!.

لذلك لما قال لوط متأسفًا من أفعال قومه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠]. قال النبي ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**»(١).

فهو عليه السلام في الحقيقة كان يأوي إلىٰ الله تعالىٰ ويتقوىٰ به سبحانه، لكن نظرته في ذلك الوقت كانت محصورة في المادية والجسمانية فقط!

***

ورمضان خير دليل:

يأتي هذا الشهر ليأخذ الإنسان ليحلق به في السماء حيث تجذبه الروح إلىٰ أصلها ومنبعها، وتذكره بمنصبه ومركزه، وغايته ومهمته وهي عبادة الله، وتفتح فيه الكوة إلىٰ العالم الذي انتقل منه، وإلىٰ سِعته وجماله، ولطافته وصفائه، وتثير فيه الأشواق والطموح، وتبعث فيه الثورة علىٰ المادة الكثيفة الثقيلة (الجسد)، وتزين له الانطلاق من القفص الضيق الخانق –وإن كان من ذهب– والتحليق في الأجواء الفسيحة التي لا نهاية لها، وفك السلاسل والأغلال من عادات ومألوفات، ولذات واحتياجات.

(١) رواه البخاري ومسلم.

قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَتَىٰ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ شَهْرٌ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ رَمَضَانَ... وَذَلِكَ لِمَا يُعِدُّ الْمُؤْمِنُونَ فِيهِ مِنْ الْقُوَّةِ لِلْعِبَادَةِ..**»[1].

هذه القوة التي يعدها المؤمنون في رمضان من عبادات يخرجون بها عن المألوف، في كسر للروتين، وانعتاق من أسر العادات المستحكمة فيهم، فيها تقوية لإرادة المرء وعزيمته، فليست مصادفة أن تكون غزوة بدر ٢هـ في رمضان، وفتح مكة ٨هـ أيضًا.. إلىٰ عين جالوت ٦٥٨هـ.. إلىٰ حرب أكتوبر ١٠رمضان ١٣٩٣هـ.

وكثير من الناس كان لا يستطيع الصيام قبل رمضان، أصبح في استطاعته الصوم لمدة ست عشرة ساعة متواصلة في جو شديد الحرارة ؟!

كثيرون ما كانوا يتصورون أن يقوموا ثلث الليل أونصفه.. وأن يقل نومهم عما كانو عليه قبل رمضان.. أو أن تتحمل أبدانهم كل هذه المشاق.

وإننا نقدر بعون الله ومدده علىٰ الانفكاك من قيود المعاصي والذنوب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

---

(١) رواه أحمد، وصحح إسناده أحمد شاكر.

قال المناوي: (وإنما شُرع الصوم كسرًا لشهوات النفوس وقطعًا لأسباب الاسترقاق والتعبد للأشياء، فإنهم لو داموا أغراضهم لاستعبدتهم الأشياء، وقطعتهم عن الله، والصوم يقطع أسباب التعبد لغيره، ويورث الحرية من الرق، لأن المراد من الحرية أن يملك الأشياء ولا تملكه).

والحُر من خرق العادات منتهجًا نهج الصواب ولو ضد الجماعات

يقول نابليون بونابرت:

لا توجد كلمة مستحيل إلا في قاموس الضعفاء.

وأجمل منه قول ابن القيم: «ولو توكل العبد علىٰ الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورا بإزالته لأزاله»[1].

فالإنسان ما خلَقه الله ضعيفًا إلا ليكون ضعفُه دافعًا له إلىٰ باب الله، ليتَّصل به، ليلوذَ بحماه، ليقْبِل عليه، ليلجأ إليه، ليحتمي به، الضعف في الإنسان وسيلةٌ وليس هدفًا، وسيلةٌ لدفعه إلىٰ باب الله، وسيلةٌ لإقباله علىٰ الله، لو أن الإنسان خُلِقَ قويًا لاستغنىٰ بقوته عن الله، فشقي باستغنائه عن الله، خلقه ضعيفًا ليفتقر في ضعفه، وليُقْبِل علىٰ الله عزَّ وجل، فيسعد بافتقاره إليه.

٢٠١٦/٦/١٤

(١) مدارج السالكين ١/ ٨١.

وقفات مع ضرب الزوجات

كثر الجدل في هذه الآونة مع كلام شيخ الأزهر حفظه الله في ضرب الزوجات والذي نص فيه علىٰ صورة من الضرب غير المبرح. والذي قوبل كلامه بكثير من الاعتراض والسخرية والحنق.. وربما التطاول علىٰ التشريع نفسه.

وأقول:

حتىٰ نفهم هذه القضية علينا أن نتخلىٰ عن خاصية «الزووم» التي تقترب من بعض الأشياء فتبشعها وتضخمها وحدها، بينما إن وُسعت عدسة الكاميرا اجتمعت التفاصيل والدقائق كلها فالتقطت الصورة كاملة وظهر جمالها المتناسق.

وهذا ما سوف أجليه في هذا المقال، وأرجو أن تتحملوا طوله رغم حرصي علىٰ الإيجاز.. لكن الموضوع لا يوجز بكلمتين بل يحتاج تفصيلًا..

وحتىٰ نتصور المشهد كاملًا، علينا بالآتي:

أولًا: مراعاة الأعراف المختصة بهذا الزمن:

ومنها أن الضرب كان وسيلة تأديب لكل ما يقوم عليه الرجل، مِن امرأة، وابن، وخادم، ودابة. وهذا مشهور ومشاهد في حوادث العرب وسجلاتهم ويطول المقام في تقريره.

كذلك الضرب كان لا يعد في هذا المجتمع اعتداءً ولا تَعُدُّهُ النساءُ

أيضًا اعتِداءً، ولا يَعُدُّونَ صُدُورَهُ مِنَ الأزواجِ إضرَارًا ولا عَارًا ولا بدعًا مِنَ المُعَامَلَةِ فِي العائِلةِ، ولا تَشعُرُ نِسَاؤُهُمْ بِمِقْدَارِ غَضَبِهِمْ إِلَّا بِشَيءٍ مِن ذَلِكَ.

ومِن الشواهد علىٰ أن المرأة كانت تقبل ذلك، أنه لما طُلقت هند بنت عتبة من الفاكه المخزومي، قالت لأبيها: يا أبتِ: إنك زوّجتني من هذا الرجل ولم تؤامرني في نفسي، فعرض لي معه ما عرض؛ فلا تزوّجني من أحد حتىٰ تعرض عليّ أمره، وتبيّن لي خصاله.

فخطبها سهيل بن عمرو، وأبو سفيان بن حرب. فقالَ لهَا أبوها: إِنَّهُ قَدْ خَطَبَكِ رَجُلانِ مِنْ قَوْمِكِ وَلَسْتُ مُسَمِّيًا لَكِ وَاحِدًا مِنْهُمَا حَتَّىٰ أَصِفَهُ لَكِ:

أما أحدهما ففي ثروة واسعة من العيش، إن تابعتيه تابعك، وإن ملت عنه حطّ إليك، تَقْضِينَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ، وَتَكْتَفِينَ بِرَأْيِكِ عَنْ مَشُورَتِهِ.

وأما الآخر فموسّع عليه، منظور إليه، في الحسب الحسيب، والرأي الأريب، بَدَرَ أَرُومَتَهُ، وَعَزَّ عَشِيرَتَهُ، يُؤَدِّبُ أَهْلَهُ وَلا يُؤَدِّبُونَهُ، إِنِ اتَّبَعُوهُ أَسْهَلَ بِهِمْ، وَإِنْ جَانَبُوهُ تَوَعَّرَ عَلَيْهِمْ، شَدِيدُ الْغَيْرَةِ، سَرِيعُ الطِّيَرَةِ، صَعْبُ حِجَابِ الْقُبَّةِ، إِنْ حَاجَّ فَغَيْرُ مَنْزُورٍ، وَإِنْ نُوزِعَ فَغَيْرُ مَقْهُورٍ، وَقَدْ بَيَّنْتُ لَكِ كَلَيْهِمَا.

فقالت: يا أبت، الأوّل سيد مضياع للحرّة، فما عست أن تلين بعد إبَائِهَا، وتضيع تحت خِبَائِهَا.. فساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أَحْمَقَتْ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت؛ فاطو ذكر هذا عني، ولا تسمّه عليّ بعد.

وأما الآخَرُ فَبَعْلُ الْحُرَّةِ الْكَرِيمَةِ، إِنِّي لأَخْلاقِ هَذَا لَوَامِقَةٌ، وَإِنِّي لَهُ لَمُوَافِقَةٌ، وَإِنْ لآخُذَهُ بِأَدَبِ الْبَعْلِ مَعَ لُزُومِي قُبَّتِي، وَقِلَّةِ تَلَفُّتِي، وَإِنَّ السَّلِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَحَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ الْمُدَافِعَ عَنْ حَرِيمِ عَشِيرَتِهِ، الذَّائِدَ عَنْ كَتِيبَتِهَا، الْمُحَامِيَ عَنْ حَقِيقَتِهَا... فزوجها من أبي سفيان[1].

فعلينا أن ننظر بداية لمفهوم الضرب في هذا التوقيت، ومدىٰ قبوله ورفضه! وأنه لم يكن يختص بالزوجة ولكن يشمل كل ما أريد تأديبه وزجره من زوجة وخادم وأولاد... إلخ. هذا أولًا.

ثانيًا: أن الإسلام لم يدعُ إلىٰ الضرب:

فقد تعامل الإسلام مع الضرب علىٰ أنه أمرٌ متفشٍ ومستقر في القوم وأسلوب تأديبي (للزوجة والخادم والولد)، لكن الإسلام نهض إلىٰ ترشيده، وسعىٰ في الحد منه وقارب بمنعه تمامًا.

(١) انظر: العقد الفريد (٧/ ٩٣-٩٤)، أمالي القالي (٢/ ١٠٤-١٠٥).

وذلك بثلاثة طرق:

١- الأسوة الحسنة في سلوك النبي ﷺ:

فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ امْرَأَةً لَهُ قَطُّ وَلَا خَادِمًا، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[١].

وقولها هذا يُشعرنا بالمعنىٰ السابق، أن الضرب سلوك مستحكم فكانت مخالفة النبي ﷺ له أشبه بالظاهرة التي تحتاج إلىٰ رصد وتسجيل.

٢- التحذير من الاعتداء في الضرب عمومًا:

• من ذلك قوله ﷺ: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عُتُوًّا مَنْ ضَرَبَ غَيْرَ ضَارِبِهِ**»[٢].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ ضَرَبَ ضَرْبًا ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٣].

• وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَجَنَّبِ الْوَجْهَ، وَلَا يَقُلْ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٢٦٤٠٤) وصححه محققو المسند.

(٢) رواه الحاكم ٤/ ٣٤٩، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وصححه الألباني.

(٤) رواه أحمد (٧٤٢٠) بسند صحيح.

٣- التعامل مع حالات الضرب بخصوصها وتوجيه وترشيد كل منها بما يناسبه.

ونفصل القول في كلٍ علىٰ حِدة مع محاولة الإيجاز، لكن من المهم قبل هذا التفصيلً أن نستحضر في كل جزئية ما ورد فيها من وصايا وإحسان وتكريم وبر في القرآن والسنة، أعني: التعامل مع الأبناء الصغار والخدم والنساء... ولولا خشية الإطالة لحشدت لذلك حشدًا، وتفصيل ذلك، فيما يلي:

أ- ضرب الأبناء:

ففي ضرب الأبناء، ليس عندنا إلا حديث الضرب علىٰ الصلاة، وهنا نسأل: هل الحديث يدعو إلىٰ الضرب أم ترشيده والحد منه، ونص الحديث يوضح المسألة:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١).

وهنا نرىٰ أهمية التعليم والتعويد للصبي قبل المباشرة في الضرب، فوفق ما سبق الضرب كائن كائن، لأنه أسلوب متعارف عليه عندهم في ذلك الزمان، لكن النبي ﷺ أراد أن يؤسس قاعدة، وهي لا تسبق بالضرب قبل التفهيم والتعليم والتعويد، الذي قد يستغرق ٣ سنوات!!

(١) رواه أبو داود، وقال الألباني: حسن صحيح.

ومسألة أخرىٰ أنه جعل سِنًا معينة للضرب، حتىٰ لا يتجاوزه البعض فيضرب الصبي كل حين في صغره فجعله ١٠ سنين، وإذا اعتبرنا أن الصبي كان يجاز للجهاد والقتال إذا بلغ ١٥ سنة، فالعشر سنين في وقته تجعله من الإدراك والفهم والوعي بقيمة هذا الضرب الرادع، ومع ذلك تكلم الفقهاء كثيرًا وأخذوا يقيدون الضرب بحد أقصىٰ وحد أدنىٰ وبآلة أم باليد ومن له الحق الوالد فقط أم للمعلم هذا أيضًا، حتىٰ إنهم قالوا إن عُلم أنه إذا ضرب لن يستجيب فلا سبيل لضربه**!!**

وجاء في لفظ للحديث: «**عَلِّمُوا صِبْيَانَكُمُ الصَّلَاةَ فِي سَبْعِ سِنِينَ، وَأَدِّبُوهُمْ عَلَيْهَا فِي عَشْرِ سِنِينَ**»[1]، فعُلم هنا أن الضرب في محل التأديب، وأنه وسيلة له، فجاز من ذلك تبديل الوسيلة لتحقيق الغاية. بمعنىٰ لو اتفقنا الآن أن الضرب ليس مجديًا وربما يؤذي، انتقلنا إلىٰ وسيلة أخرىٰ تحقق التأديب وتتماشىٰ مع العرف السائد.

ب- ضرب المملوك والخادم:

١- جعل النبي ﷺ ضرب المملوك بغير حق كفارته إعتاقه وأن يكون حرًا، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ ضَرَبَ**

(١) السنن الكبرىٰ للبيهقي (٢/ ٣٢٤).

غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ أَوْ لَطَمَهُ، فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ»[1].

٢- ودعا ﷺ أن يكف عنه الضرب إن ذكر الله، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ خَادِمَهُ فَذَكَرَ اللهَ فَارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ**»[2].

٣- عدم الظلم والتجني وأن تكون المجازاة والعقاب علىٰ قدر الخطأ فقط! فقد جلس رَجُل مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، فَأَضْرِبُهُمْ وَأَسُبُّهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بِحَسْبِ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتَصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلَ الَّذِي يَبْقَىٰ قِبَلَكَ**»، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَهُ؟ أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾**[الأنبياء: ٤٧]»، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجِدُ شَيْئًا خَيْرًا

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وضعفه الألباني.

لِي مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ، أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ[1].

٤- التهديد والوعيد لمن فعل ذلك:

فيقول أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ**»، فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ**»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلَامِ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وفي رواية قال: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقَالَ ﷺ: «**أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ**»[2].

ج- ضرب الزوجات:

وهنا بيت القصيد، وقد اتفقنا من قبل أنه -مع ما سبق من ضرب الخادم والصبي- عادة مستحكمة، وأسلوب للتأديب، وهنا تعامل معه الشرع كما تعامل مع سابقيه، بكف الظلم فيه وألا يكون مهينًا وأن يكون بقدر الحاجة... إلىٰ غير ذلك من التفصيل في كتب الفقه.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٨٦).

(٢) رواه مسلم.

لكن في تعامل النبي ﷺ معه أمور:

أولًا: أنه حاول منعه لكن الأمر لم يستقم من دونه، لطبيعة القوم؛ لأن النساء في هذا الوقت لا يستقمن إلا بهذا التأديب، فتجرأن علىٰ أزاوجهن، كما في نص الحديث.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللهِ**»..

هذا نهي واضح.. والصحابة استجابوا له وامتنعوا بالفعل.. لكن حدث ما لا يقبله الدين أيضًا.. فَجَاءَ عُمَرُ، فقال يَا رَسُولَ اللهِ، ذَئِرَ النِّسَاءُ، وَسَاءَتْ أَخْلَاقُهُنَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ مُنْذُ نَهَيْتَ عَنْ ضَرْبِهِنَّ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَاضْرِبُوهُنَّ**». وفي رواية: فرخص في ضربهن...

فَضَرَبَ النَّاسُ نِسَاءَهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَأَتَىٰ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْتَكِينَ الضَّرْبَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ: «**لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ اللَّيْلَةَ سَبْعُونَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ يَشْتَكِينَ الضَّرْبَ، وَايْمُ اللهُ لَا تَجِدُونَ أُولَئِكَ خِيَارَكُمْ**»[1].

وزاد في مسند إسحاق بن رهويه:

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أُحِبُّ أَنْ أَرَىٰ الرَّجُلَ ثَائِرًا غَضَبُهُ فَرِيصًا رَقَبَتُهُ عَلَىٰ مُرَيَّتِهِ يَقْتُلُهَا**»[2]**!**

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤١٨٩)، وصححه الألباني.

(٢) مسند إسحاق بن رهويه (٢٢١٧).

ونفهم من هذا الحديث:

١- أن النبي ﷺ لم يحب ضرب الزوجة.

٢- أنه ﷺ حاول النهي عنه لكن النساء عصين أزواجهن بسوء تصرفهن وبطبعهن المستحكم في هذا العصر.

٣- أنه رخص فيه، لكن جعل الخير في تركه.

ثانيًا: كان نصح آخر من النبي ﷺ بأمر يتوسط بين الضرب وبين منعه:

فلما كانت نساء القوم لا يستقمن إلا بهذا الضرب، وكان ﷺ لا يحبه، أراد أن يسلك المسلمون مسلكًا وسطًا وهو التهديد بالضرب فقط، وذلك في قوله: «**عَلِّقُوا السَّوْطَ حَيْثُ يَرَاه أَهْلُ الْبَيْتِ**»[(١)]، فهذا مجرد تعليق آلة الضرب في مكان يراه أهل البيت (الزوجة – الابن – الخادم) يجعلهم يطيعون ولا يتجرأون فيعصون. فيحصل المقصود من الضرب دون مباشرته وفي رواية زاد: «**فَإِنَّهُ لَهُمْ أَدَبٌ**»[(٢)].

ثالثًا: كان النبي ﷺ يُبشع ضرب المرأة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٩٦٣) والطبراني في الكبير(١٠٦٦٩، ١٠٦٧٠) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٤٦).

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار وقال الهيثمي: وإسناد الطبراني فيهما حسن. وكذا حسنه الألباني.

قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ النِّسَاءَ فَوَعَظَ فِيهِنَّ، وَقَالَ: «**عَلَامَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُضَاجِعَهَا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ، أَوْ آخِرِ اللَّيْلِ**»[1]؟ كيف تطيب نفسك أن تضربها ثم تجامعها ليلًا؟!

رابعًا: كان النبي ﷺ يُبعد من اختيارات النساء في الزواج الرجل كثير الضرب:

فلما جاءت فاطمة بنت عبد قيس تخبر النبي ﷺ بخُطّابها الثلاثة: (مُعَاوِيَة، وَأَبي جَهْم، وَأُسَامَة بْنُ زَيْدٍ)، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَرَجُلٌ تَرِبٌ، لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَرَجُلٌ ضَرَّابٌ لِلنِّسَاءِ، وَلَكِنْ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ**»[2].

وهنا كان استبعاد أبي جهم بسبب أنه كثير الضرب للنساء (ضرّاب) صيغة مبالغة، وفي رواية: «**لَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ**».

خامسًا: قدَّم النبي ﷺ الطلاق علىٰ الضرب في معالجة الزوجة السيئة، فعن وَافِدِ بْنِ الْمُنْتَفِقِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي امْرَأَةً فَذَكَرَ مِنْ طُولِ لِسَانِهَا وَبَذَائِهَا.

فَقَالَ الرسول: «**طَلِّقْهَا**»!

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا ذَاتُ صُحْبَةٍ وَوَلَدٍ.

---

(١) رواه أحمد (١٦٢٢١) وإسناده صحيح علىٰ شرط البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

قَالَ: «**فَأَمْسِكْهَا وَأْمُرْهَا، فَإِنْ يَكُ فِيهَا خَيْرٌ فَسَتَفْعَلُ، وَلَا تَضْرِبْ ظَعِينَتَكَ ضَرْبَكَ أَمَتَكَ**»(١).

فكان الاختيار الأول الطلاق، ولما رأىٰ من الرجل حسن عهده بها وبصحبتها، جعل يرشده في مسألة الضرب التي ستحدث ستحدث لما قررناه من طباع هذا المجتمع، فنهاه أن يكون ضربه كما تُضرب الأمة المستملكة علىٰ عادتهم لا علىٰ شِرعة الإسلام التي هذبت من ضرب العبد والأمة أيضًا.

***

ثم أما بعد..

في ضوء كل هذا علينا أن نفهم الآية التي جاء ذكر الضرب فيها:

﴿**وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ**...﴾[النساء: ٣٤].

ونسأل مرة أخرىٰ: هل الآية تدعو للضرب ابتداءً أم أنها تهذب من وضعه في مسالك التأديب؟

الصحيح: أنها تهذب من وضعه.. لماذا؟ لأن الضرب قائم لا محال، وهو سلوك مستحكم في القوم، فأراد الله أن يهذب وضعه. وذلك بفهم الآية نفسها:

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٦/ ٣١٠) وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

١- أنه ذُكر في النشوز وهو علو المرأة علىٰ الرجل وعصيانها له، وذلك بدلًا من أنه كان في كل تصرف أو خطأ للمرأة.

٢- أنه جعله أحد الوسائل التأديبية وليس أولها، بل هو آخرها، وتِعداد الوسائل هنا لا للحصر، فقد تجد وسائل أخرىٰ تدعو لنفس المقصد وهو ردع الزوجة وتنبيهها لنشوزها.

وقد لا يحقق بعضها في وقت أو حالة عين المقصد نفسه.

٣- التنبيه علىٰ عدم الظلم والعدوان والكف المباشر بمجرد الطاعة للزوج مرة أخرىٰ، فالغرض الردع لا التشفي والعقاب، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[النساء: ٣٤]، والتذكير بصفات العلو والكبر، تهدد العبد بقدرة الله وقهره وانتقامه إن جنىٰ وبغىٰ.

٤- سياق الآية التالية يقيد الضرب بقيود ربما تمنعه من الأساس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[النساء: ٣٥].

أول قيد (خوف الشقاق).. فإن أدىٰ الضرب إلىٰ شقاق فهو أولىٰ بالامتناع.

وكذلك (إرادة الإصلاح).. فإن لم يُصلح الضرب من أمر المرأة فلا حاجة إليه، وإن تسبب في فساد أكبر فالأولىٰ منعه.

إذن الآية لا تدعو لضرب الزوجات، الآية تدعو لإصلاح النشوز منهُن [فقط وليس كل خطأ] بما لا يؤدي إلىٰ الشقاق والتنافر بأي وسيلة ممكنة يرتضيها عُرف الناس ويقرونها ويتصالحون عليها، فإن كان القوم يرضون بالضرب مثلما كان في وقت النبي ﷺ وأصحابه ولا يعدونه اعتداءً وكان هذا الضرب يؤتي ثمرته تلك، كان لهم أن يستخدموه.

وإن كان العُرف يمنع ذلك والنساء لا تستجبن بالضرب وصار الضرب عندهن من الإهانات التي تؤدي إلىٰ النزاع والشقاق عُدل عنه إلىٰ سواه من الوسائل.

فمراعاة العرف معتبرة وكل بلد وبيئة وطبقة من الناس لهم معارفهم وتقاليدهم، من ذلك قول عُمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ نِسَاءَنَا، فَلَمَّا أَنْ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، قَدِمْنَا عَلَىٰ قَوْمٍ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ...»[1].

ومع ذلك فمن استخدم الضرب رخصة في ردع النشوز (وأنا أؤكد علىٰ أن الضرب للنشوز لا غيره من الخلافات والمخاصمات) فمن استخدمه وفق العادة المستقرة في البلد، عليه ألا يفرط فيه لأن النبي ﷺ قيد اللفظ المطلق (**اضربهون**) فقال كما في خطبة الوداع:

(١) صحيح ابن حبان (٤١٨٧)، وقال الألباني: صحيح.

«فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا: أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا غَيْرَكُمْ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِأَحَدٍ تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ خِفْتُمْ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ»[1]. أي: غير مُؤَثِّرٍ، وهو الذي فصل فيه الفقهاء في كيفيته وأداته وأنه لا يكسر عظمًا ولا يجرح جلدًا... وأن يكون بسواك أو عود أو ما شابه..إلخ[2].

---

(١) رواه أحمد (٢٠٦٩٥)، وهو صحيح لغيره.

(٢) والشيء بالشيء يذكر: فقد انتشر علىٰ مواقع التواصل منشورٌ طويل يفسر معنىٰ الضرب في الآية بأنه لا يعني الضرب الفعلي، وحسب تفسيره يكون معناه المباعدة أو الابتعاد خارج بيت الزوجية. وجاء ببعض المعاني اللغوية واستدل ببعض الآيات من المنطلق اللغوي مما يخيل بأن تفسيره متماسك، والحقيقة أن هذا تفسير عقيم وعورة جهل بينة وهو أحد تخرصات محمد شحرور المشهورة.

وأقول: ليس هذا تفسير الآية من لدن النبي ﷺ إلىٰ علماء القرن العشرين.. وليس هذا مما تعنيه اللغة العربية، وإن كان قد يكون للكلمة معنىٰ آخر في سياقٍ مغاير من باب المجاز والكناية، لكن القرآن يفسر بداية بالقرآن ثم بالأحاديث الصحيحة ثم بآثار الصحابة الذين عايشوا نزول القرآن ووقائعه بالإضافة إلىٰ اللغة العربية الأصيلة.

ولا أريد الإطالة.. يكفي أن نقول له هل يعني ربنا بقوله: **«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا»**[الأعراف: ١٦٠]. أي باعد وأهجر؟ وأهجره بالعصا؟؟ وهل تكون المباعدة والمهاجرة غير مبرحة؟ والنبي ﷺ يقول: **«فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غير مُبَرِّحٍ»**؟! وكيف يكون سياق الآية بالهجر في المضاجع صراحة ثم تكون المباعدة؟ أليسا شَيئًا واحدًا؟ والواو تفيد المغايرة.. أي أن الوعظ غير الهجر غير الضرب؟ هذا ليّ للنصوص بغير ما تحتمل وتقوّل علىٰ الله لا يخدم تطهير=

وكذلك اعتبار قوله الآخر: «**وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْت**»[1].

بل لو عُلم من الرجال الإفراط في الضرب والتعدي به، جاز للحكام منعه وإصدار العقوبة لمن فعله، كما قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجُوزُ لِوُلَاةِ الْأُمُورِ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْأَزْوَاجَ لَا يُحْسِنُونَ وَضْعَ الْعُقُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ مَوَاضِعَهَا، وَلَا الْوُقُوفَ عِنْدَ حُدُودِهَا أَنْ يَضْرِبُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمُ اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ، وَيُعْلِنُوا لَهُمْ أَنَّ مَنْ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ عُوقِبَ، كَيْلَا يَتَفَاقَمَ أَمْرُ الْإِضْرَارِ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ ضعف الْوَازِع»[2].

***

أظن الصورة وضحت هكذا.

كتبت هذا علىٰ عجالة حتىٰ يستبان الأمر لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

٣ يونيو ٢٠١٩

شبكة الألوكة

=الدين من شبهة عالقة أو سلوك أهوج، بل يزيده جهلًا ونقصًا.. إنما ترد الشبهة بالعلم والفهم والدراية..كما بينا في هذا المقال، والحمد لله.

(١) رواه أحمد وأبو داود وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) التحرير والتنوير ٥/ ٤٤.

أولادنا ليسوا للتمليك

تضج محاكم الأسرة بقضايا الحضانة والرؤية ونزاع علىٰ أشده بين المطلقين والمطلقات علىٰ أولادهم.. والعقلية المسيطرة علىٰ كلا الطرفين «**من له حق التملك لابنه**».. نعم لم يخطئ قلمي.. فهم يتعاملون بمنطلق الملكية لا الولاية والرعاية.. الولد حق لمَن؟ وليس حقه عند مَن؟ أو مَن الجدير بإصلاحه وتقويمه ورعايته؟ لا مَن بمقدوره السطو عليه!

ولك أن تتخيل أن النبي ﷺ في مثل هذه الحالة كان يُخيّر الولد نفسه بين أبويه[1].. وليس يتخيره أبواه؟

نحن مع الأسف لا نُغلب مصلحة الأولاد بل نجعلهم مصلحةً لنا.. نضغط بهم لما نشاء كيفما شئنا.. نحجبهم إن أردنا عن أمهم أو أبيهم أو أهلهم.. ونطلقهم إن أردنا كذلك.. إن تعكر صفونا منعنا.. وإن رضينا أرسلنا.. أبوك جيد إن دَفع.. وسيء إن مَنع.. وأمك مصونة إن واصلت.. وإن جحدت فهي لعوب.. أما أنت فمِلك لمن غلب.. مِلك لدرجة أن تسلب روحك يا صغيري من أجل ألا تتهدهد في حجر أبيك.. أنت ملك لأمك التي قررت أن

(١) انظر: سنن أبي داود (٢٢٧٧)، والترمذي (١٣٥٧)، وابن ماجه (٢٣٥١)، ومسند أحمد (٧٣٥٢) والنسائي (٣٤٩٦). وكذلك: (المصنف) لعبد الرزاق (١٢٦٠٩).

تدسك في النهر وتراك تنزع مع أمواجه مقابل ألا تراك في حضن أبيك يومًا[1].

يا سادة أولادنا ليسوا للتمليك.. أولادنا هبة من ربنا.. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[الشورىٰ: ٤٩] اعملوا لصالحهم وكفاكم ضغطًا بهم.. لا تجعلوهم سلاحَ ردع أو قتل بيد طرف مقابل طرف.. إن لم تقتلوا أنفسهم.. فحتمًا ستقتلون نفسياتهم.. وعند الله الموعد.

٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠

اتركوا للأطفال براءتهم

استغلال الأطفال جريمة..

ليس فقط أن تجعلهم يحترفون الأعمال الشاقة أو تأكل من كسبهم!

هناك نوع آخر من الاستغلال.. هو أن تجعلهم يتحدثون في قضايا أكبر منهم اجتماعيًا وسياسيًا ودينيًا.

---

(١) إشارة إلىٰ حادثة مأساوية وقت كتابة المقال لسيدة رمت طفليها من جسر الأئمة فوق نهر دجلة بالعاصمة بغداد. طالع الخبر علىٰ هذا الرابط:

https://www.bbc.com/arabic/trending-54603979

فقد انتشر مع الأسف فيديوهات لأطفال للتأييد السياسي أو الاعتراض.. وترىٰ فيهم التشدق والخطابية و«الحزق» و«الزعيق» ويتكلمون وكأنهم ينذرون جيشًا وبالطبع واضح عليهم الإملاء والإعداد المسبق من آبائهم لتصويرهم..

تمامًا كموجة الأطفال التي كانت تخطب الجمعة بغبغوات لا تعي مما تتشدق به شيئًا!

وآخر ما رأيت فيديو لطفلين ينصحان بالتعدد للرجال!

هل تخيلتَ طفلًا لم يبلغ الحُلم ولا يعرف كيف يواقع الزوج زوجته يُنَظر وينصح ويدعو الرجال للتعدد!

فيديوهات كثيرة علىٰ مواقع التواصل فيها تلقين للأطفال واستغلال حقيقي لترويج أفكار وسلوكيات وموضوعات أكبر منهم.

بالله اتركوا للأطفال براءتهم.. لا تزجوا بهم في معتركاتكم.. إن كان لديهم موهبة في الإلقاء أو التمثيل أو الأداء وظفوها في سنهم فقط.. تعلموا كيف تنمىٰ مواهب الأطفال المبدعة.. لا تجعلوهم صناديق تحوي أمتعتكم الفكرية!

***

مع موسى وضوابط الاختلاط

أصبح اختلاط الطرفين -الرجال والنساء- اليوم ضرورة حياتية، في العمل والتعليم، وعلىٰ مواقع التواصل، ولا بد من معاملة بعضنا بعضًا، لكن ينبغي ألا ننسىٰ أن هناك حدودًا وضوابط بين الشاب والفتاة لا ينبغي أن تذوب مثلما يحدث الآن، وهذه الضوابط يضعها لنا سيدنا موسىٰ عليه السلام، فلما خرج من مصر إلىٰ مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِّ﴾

يعني: تمنعان أغنامهما عن الماء مخافة أن يختلطا بالرجال..

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَّا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُّ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣-٢٤].

هنا نلمح الإطار العام الذي يحدد طبيعة العلاقة بين الرجال والنساء، وهي علاقة حاجية (من الحَاجة) وليست تسامرية (من السمر)، فالمرأتان في حاجة الآن جعلت موسىٰ ينهض لقضائها، فقال: (**ما خطبكما**)؟..

وهذا هو **الضابط الأول:**

أن تكون المحادثة بقدر الحاجة، هكذا بأقل الحروف، وأقصر العِبارات.. **(ما خطبكما)**؟.. حتىٰ من دون سلام، وقد ثبت أن موسىٰ ألقىٰ علىٰ الخضر السلام.

وبالقدر نفسه عبرت الفتاتان عن مشكلتهما: **(قالتا لا نسقي حتىٰ يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير)** فتقدم ليسقي للمرأتين **(فسقىٰ لهما)** وماذا بعد؟ هل قال ما اسمكما؟ دعوني أوصلكما إلىٰ البيت؟ أريد أن أطمئن علىٰ الوالد؟ هل سأراكما الغد حتىٰ أسقي لكما؟ أو حتىٰ سألهما عن مكان يئويه وهو غريب محتاج ..لا.. لم يحدث شيء ذلك، ولكن.. **(تولىٰ إلىٰ الظل)** فلقد انتهت المهمة فما الداعي للوقوف والمحادثات والمناقشات.

إن هذا الإطار هو ما ينبغي أن يحكم العلاقة بين الرجل والمرأة.. لا أن يتقدم الذكر للمرأة لينال منها وينتهز فرصة ضعفها واحتياجها، فيتقدم لخدمتها لا من باب الشهامة ولكن من باب إثارة الشهوات.

***

ثم يأتي المشهد الثاني ليكمل الضوابط في العلاقة.. فالنيات والأهداف النبيلة قد تذهب أدراج الرياح مع لذة الشهوة، وغفلة الضمير، وغياب الدين.. ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

وهذا هو الضابط الثاني: **الحياء**:

الحياء كله خير، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَىٰ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**»[1].

وهذا عام للفتاة والشاب.. ولكن للفتاة آكد، كنز ذوات الخدور.

هذا الحياء الذي ظهر من الفتاة بذل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجله عشر سنوات من عمره مهرًا لها ﴿**قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ**﴾[القصص: ٢٧]. فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قضىٰ أكثرهما وأطيبهما، إن النبيّ إذا وعد لم يخلف[2].

عشر سنوات من عُمره وجَهده ليس لشيء إلا الحياء فقط، الحياء أعز ما تملكه الفتاة، وهذه تمشي علىٰ استحياء.. وكلامها نفسه كان علىٰ استحياء ﴿**عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ**﴾ أجاز العلماء الوقف عليها هكذا، كلماتها في غاية الوضوح، قليلة في العدد، محققة للمقصد.

فالكلام يكون علىٰ قدر الحاجة، فلا ليونة وثرثرة، ولا تمطيط وتقطيع، ولا رقة وتبسط في الكلام، فالله تعالىٰ يقول: ﴿**فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا**﴾[الأحزاب: ٣٢].

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٠).

(٢) تفسير الطبري تحقيق شاكر (١٩/ ٥٦٩).

والضابط الثالث: الابتعاد عن الشبهات:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَآ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، فتأكيدها علىٰ كبر والدها، من باب ألا يظن في خروجها ظنًا سيئًا.

والضابط الرابع: العلانية:

فلم يكن اللقاء وراء ستر، وبعيدًا عن أعين الناس، فالحذر من أن يختلي الشاب بالفتاة وليس معها ذو محرم، وليس هذا لفقدان الثقة بهما أو بأحدهما، ولكنه حماية من وساوس السوء وهواجس الشر التي ربما تحرك الشهوة، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَخْلُوَنَّ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا** [مثل: أخوها، أبوها، ابنها، عمها، خالها]، **فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ**»(١).

وقال الله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾[البقرة: ٢٣٥].

وأنبه:

أي اختلاط يستمر وقتًا من الزمن وأي علاقة بين الجنسين تمتد وتطول لابد وأن تؤدي إلىٰ نوع من الارتباط بين الرجل والمرأة لينقلب إلىٰ عاطفة متصاعدة شئنا أم أبينا، ثم تنقلب حبًا، ومن بعد

(١) رواه أحمد (١٤٦٥١) وحسنه لغيره محققو المسند.

الحب العشق والهيام، ومن ثم الخوف المستمر من ترك الحبيب أو الانحدار نحو الهاوية، والتعرض لصدمة نفسية ومحنة كبيرة واضطرابات عصبية ونفسية في حال الفراق، ومواجهة المشاكل الدائمة مع الأسرة، فضلًا عن خسران العلاقة مع الله سبحانه.. أليس هذا ما يحدث؟! انظر في مَن حولك، وراجع شريط الذكريات.

١٢ مايو ٢٠١٧

شتات.. جمع «شات»

«شتات» هي مفردة عربية بمعنىٰ التفرق، هكذا نجدها في المعاجم العربية، أما في قواميس الواقع فنستطيع أن نعتبرها جمعًا للكلمة الإنجليزية «شات» **Chat** بمعنىٰ دردشة أو محادثة.

ليس بحثًا لغويًا وإنما آلام واقعية، فلا أجد معنىٰ أصدق وصفًا للشتات والفرقة إلا صورًا ملتقطة حية من مجتمعنا لأناس دخلوا إلىٰ كهف الفرقة من بوابة التواصل، فكان غيابًا في ثوب حضور، وانقطاعًا في ثوب اتصال.

لقد وهب الله الإنسان قدرة علىٰ التواصل مع الآخرين ليحقق هدفًا منشودًا، وهو التآلف والتراحم والتعارف والاجتماع، قال

الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحجرات: ١٣].

فالتّواصل والاجتماع وتبادل المعارف والمعلومات بين النّاس هو سنّة الكون، وسمة الحياة الدنيا، لكن مع انتشار وسائل الاتصال الحديثة، وتكنولوجيا التواصل الاجتماعي عن بعد، لا تفتأ ترىٰ الشباب الآن في عالم غير العالم، ودنيا غير الدنيا، سحبت أذنيه سماعة سلكية (أو لاسلكية)، وعينيه شاشة إلكترونية، وخاطره دار بين الأثير في انفصال تام عما يدور حوله.

وأنت في «المترو» ومع زحام السير تفاجأ باصطدام عنيف.. وما أن تنتبه إلا وتجده جسدًا متحجرًا ليس به ذرة مشاعر! يسير متخبطًا فاقد التركيز والوعي؛ لأنه متواصل علىٰ أحد مواقع التواصل الاجتماعي!

يعيش في بيت خلا منه الدفء والحنان والرعاية، فكل فرد فيه متواصلًا اجتماعيًا منقطعًا أسريًا.. لا يعرف عن والديه شيئًا أو يدري عن إخوته حوادثهم!

حتىٰ في تواصله علىٰ «الشات» هو فاقد لأدوات التواصل الطبيعية، من تعبيرات، وانفعالات، وإيماءات، ونبرات صوتية، وحركة أعضاء جسده التي دون فيها علم «لغة الجسد» الآن، وغيرها من

أدوات التواصل التي جعلت من الإنسان كائنًا اجتماعيًا إلفًا ألوفًا، مؤثرًا ومتأثرًا.

ربما أرسل وجهًا حزينًا وهو في قمة سعادته وفرحه، تعازي وتهنئات و«ليكات» وزهور خاوية من المشاعر والأحاسيس.

إن التواصل الحقيقي، هو: لقاء، وتزاور، وهدية، وسؤال، وقضاء حوائج، وحل للمشاكل، وتآخي، وتراحم، وتحاب، وترحاب، وبسمة، ولمسة، وهمسة، وعزاء، ومواساة، غضب، وانفعال، وعبوس... التواصل الحقيقي هو حضور شاخص بالقلب والعقل والمشاعر والأعضاء.

حضور في البيت والأسرة.. مع الأهل والأصدقاء.. والجيران والخلان. ثم لتتسع الدائرة كما تشاء.

فأولىٰ بهذه الوسائل الحديثة أن تدرج تحت مسمىٰ وسائل «الاتصال» ولا يطلق عليها اسم «التواصل» فهي إلىٰ الفرقة أقرب.

١٦/ ٤/ ٢٠١٦

مدونة بالعربي

***

المسامح كريم

ما هكذا تتناول قضايا الناس

الإصلاح بين الناس مطلبٌ محمود علىٰ جميع المستويات سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الدولية. وعناية القرآن الكريم بالإصلاح ظاهرة وواضحة، كما رغَّبت السنة النبوية في هذا العمل المبارك، وحسبنا دليلًا علىٰ ترغيب الإسلام هذا: أن النبي ﷺ أذن بالكذب، إذا كان سيؤدي إلىٰ تقريب وجهات النظر، وإلىٰ الإصلاح بين الناس، وما الإذن بالكذب - الذي هو من أشنع الأفعال - إلا دليل علىٰ حرص الإسلام علىٰ حصول الصلح بين الناس؛ لأن البديل للإصلاح هو الإفساد والافتراق.

والله تعالىٰ وصف الصلح بقوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾[النساء: ١٢٨]، فهي كلمة جامعة مانعة، تستوعب صور الخير كلها، فهو خير علىٰ أي وجه كان؛ بسبب آثاره الإيجابية، وهو خير علىٰ الأطراف المعنية، وإن بدا لبعضهم أنه غير هذا.

ومن أجل ذلك أُنشئت مجالس الصلح في القرىٰ والقبائل والمدن وعقدت المحاكم، وسعىٰ الناس قديمًا وحديثًا للإصلاح بكل مستوياته وسلكوا جميع سبله، إلا سبيلًا ضرره أكثر من نفعه وهو التشهير والإعلان بالمتخاصمين والمتناحرين. إلا أن «إعلاميًا

مشهورًا» قرر أن يسلك هذه الطريق فعقد برنامجًا للإصلاح بين المتخاصمين سماه: «المسامح كريم».

ربما النيَّات حسنة (الله أعلم) لكن لا شك في أن الهدف إعلاميٌ في مقامه الأول، ومعنىٰ كونه إعلاميًا أنه يحوي بين طياته الكثير من الأساليب الإعلامية من إثارة وضجة وابتذال وابتزاز... وهو ما قد يحول بين إتمام الإصلاح الحقيقي، قال تعالىٰ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]، فالصلح إرادة حقيقية نابعة من المتخاصمين ومن الحُكّام أيضًا.

وفي حلقة من حلقات هذا البرنامج عرضت مخاصمة بين زوجين لاكتشاف الزوج أن زوجته تجري مكالمات غرامية مع رجل غريب ما اعتبره خيانة، فقرر الانفصال عنها دونما طلاق لتبقىٰ أمًا لأولاده، واستمر ذلك مدة العام والنصف، حتىٰ قامت المرأة بمراسلة البرنامج (كما زعموا) وقدموا للزوج دعوة حضور دون إعلامه بالتفاصيل، وحينما حضر وعلم بالأمر استشاط غضبًا وتألم من الفضيحة التي تسبب فيها كل من الزوجة والإعلامي، وانتهىٰ الأمر بعد ٢٠ دقيقة من تأزم العلاقة أكثر بتهديد الزوج بمنع الأولاد عن أمهم. فمَن له وقد انتشر الخبر بين أهله وأصدقائه؟ ومَن لولده وقد كثرت الأقاويل عن أمه وأبيه؟ وأي

إصلاح هذا الذي يبث عبر الأثير، وينشر علىٰ الفضائيات، ويروج عبر الإنترنت؟ !

إن أبجديات الإصلاح هو الستر والكتمان علىٰ خصوصيات المتخاصمين، ليس الإفشاء والإعلان والنشر! وقد أشار الله في القرآن إلىٰ ذلك بإشارة لطيفة حيث قال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، فعدَّ الإصلاح من النجوىٰ، الذي هو إسرار الحديث، وهذا بديهي مشهور بين الناس. فأيها الإعلامي الموقر، ما هكذا تتناول قضايا الناس.

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل

٢٨ إبريل ٢٠١٦

مدونة بالعربي

***

البخاري.. بطل العالم في الذاكرة

من المدهش حقًا أن تجد ذاكرة قوية تستطيع استرجاع كمية من المعلومات في وقت قياسي في عصر أصبح الاعتماد فيه علىٰ الأجهزة الإلكترونية لتخزين المعلومات والأرقام شبه كامل.

وقد أدهشنا حقًا عالم الذاكرة «توني بوزان» بمسابقته المعروفة باسم «بطولة العالم للذاكرة» منذ عام ١٩٩١، بإخراج شخصيات أقوياء في ذاكرتهم، والبطولة تهدف إلىٰ استعادة الأفراد لقوة الذاكرة التي أُهملت لفترات طويلة، عن طريق اختبارات وتمارين تقوم علىٰ قياس قوة الذاكرة البحتة، وتضم الأرقام المسموعة وأوراق اللعب (الكوتشينة) والتواريخ والصور والأسماء والوجوه.

استطاع الألماني «كليمنز مايور» أن يتذكر ١٨٨ رقمًا بعد أن قيلت له في ثوانٍ، واستحق بذلك لقب بطل العالم في القوة الذهنية.

والمتسابق «بيدمور» ضرب رقمًا قياسيًا عندما استطاع تذكر مجموعة كاملة من أوراق اللعب (الكوتشينة) في أقل من ٣٠ ثانية.

و«بوزان» يؤكد أن القدرات الخارقة في تذكر الأرقام والمعلومات يمكن تطويرها بالتمرين المستمر.

هذا باختصار عن مسابقة أذهلت العالم بقدرات خارقة في الحفظ والتذكر.

وعندما سمعت عن هذه المسابقة وأبطالها والأرقام المثارة، لم يصيبني أي عَجبٍ، فعندنا من العلماء من فاقوا هؤلاء بكثير، كالطبري وابن حجر وابن تيمية وغيرهم.

أما درة الحفاظ، وأعجب ذاكرة تسمع عنها، هو إمام الحديث محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالىٰ، إن رجعنا إلىٰ سيرته سنجد عجبًا.

وسأذكر موقفًا واحدًا سيجعلك تندهش وتذهل أمام قدرته العجيبة علىٰ التذكر.

لما قَدم البخاري بغداد وذاع صيته والناس كانت تأتيه من كل مكان، سمع بِهِ أصحاب الحديث هناك، فَاجْتمعُوا وَأَرَادُوا امتحان حفظه، فعمدوا إِلَىٰ مائَة حَدِيث فقلبوا متونها (نَصّ الحديث) وأسانيدها (الرجال الذين نقلوا الحديث بعضهم عن بعض)؛ فجعلُوا متن هَذَا الإسناد لإسناد آخر، وَإِسْنَاد هَذَا الْمَتْن لمتن آخر[1].

ودفعوا هذه الأحاديث إِلَىٰ عشرَة أنفس (١٠رجال) لكل رجل عشرَة أَحَادِيث، وَأمرُوهُمْ إِذا حَضَرُوا الْمجْلس أَن يلْقوا ذَلِك علىٰ

(١) بمعنىٰ: ينسبون حديثًا معينًا إلىٰ رواة لم يرووا هذا الحديث، ويأخذون حديثهم الذين رووه فينسبونه إلىٰ الرواة الآخرين، فيقولون: فلان عن فلان... الحديث، وهم لم يحدثوا به عنهم.

البُخَارِيّ وَأخذُوا عَلَيْهِ الْموعد للمجلس، فَحَضَرُوا وَحضر جمَاعَة من الغرباء من أهل خُرَاسَان وَغَيرهم وَمن البغداديين، فَلَمَّا اطْمَأَن الْمجْلس بأَهْله انتدب رجل من الْعشْرَة فَسَأَلَهُ عَن حَدِيث من تِلْكَ الْأَحَادِيث، فَقَالَ: البُخَارِيّ لَا أعرفهُ، فَمَا زَالَ يلقي عَلَيْهِ وَاحِدًا بعد وَاحِد حَتَّىٰ فرغ، والبُخَارِيّ يَقُول: لَا أعرفهُ.

وَكَانَ الْعلمَاء مِمَّن حضر الْمجْلس يلْتَفت بَعضهم إِلَىٰ بعض وَيَقُولُونَ: فَهم الرجل، ومن كَانَ لم يدرِ الْقِصَّة يقْضِي علىٰ البخاري بِالْعَجزِ وَالتَّقْصِير وَقلة الْحِفْظ!

ثمَّ انتدب رجل من الْعشْرَة أَيْضًا فَسَأَلَهُ عَن حَدِيث من تِلْكَ الْأَحَادِيث المقلوبة، فَقَالَ: لَا أعرفهُ، فَسَأَلَهُ عَن آخر، فَقَالَ: لَا أعرفهُ، فَلم يزل يلقِي عَلَيْهِ وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّىٰ فرغ من عشرته، والْبخاري يَقُول: لَا أعرفهُ.

ثمَّ انتدب الثَّالِث وَالرَّابِع إِلَىٰ تَمام الْعشْرَة حَتَّىٰ فرغوا كلهم من إِلْقَاء تِلْكَ الْأَحَادِيث المقلوبة، وَالْبُخَارِيّ لَا يزيدهم علىٰ: لَا أعرفهُ.

فَلَمَّا عَلم البخاري أَنهم قد فرغوا التفت إِلىٰ الأول، فَقَالَ: أما حَدِيثك الأول، فَقلتَ كَذَا، وَصَوَابه كَذَا، وحديثك الثَّانِي كَذَا، وَصَوَابه كَذَا، وَالثَّالِث وَالرَّابِع علىٰ الْوَلَاء، حَتَّىٰ أَتَىٰ علىٰ تَمام الْعشْرَة، فَرد كل متن إِلَىٰ إِسْنَاده وكل إِسْنَاد إِلَىٰ مَتنه، وَفعل

بالآخرين مثل ذَلِك، عشرة رجال بعشرة أحاديث، مغلوطة ومصححة (يعني ٢٠٠ حديث)!!

وبعد هذه الحادثة أقرَّ النَّاسُ في بغداد لَهُ بِالْحِفْظِ وأذعنوا لَهُ بِالْفَضْلِ.

هذا الموقف رواه الحافظ ابن حجر[1] بسنده عن جمع من شيوخ بغداد، ثم قال بعده: هُنَا يُخضع للبخارِي، فَمَا الْعجب من رده الْخَطَأ إِلَىٰ الصَّوَاب، فَإِنَّهُ كَانَ حَافِظًا؛ بل الْعجب من حفظه للخطأ علىٰ تَرْتِيب مَا ألقوه عَلَيْهِ من مرَّة وَاحِدَة!

وحقًا لا يستطيع أحد فعل ذلك، حتىٰ أبطال الذاكرة اليوم، فـ«بيدمور» نفسه (بطل الذاكرة السابق الذكر) يؤكد في لقاءٍ له مع صحيفة «التلغراف» أن طريقته أثبتت نجاحًا مع أوراق اللعب والأرقام، ولكن الطريقة ذاتها لا تفيده في حياته اليومية، حين يحاول تذكر الأسماء أو الوجوه، فيقول: «أنا دائم النسيان، أحيانًا أدخل غرفة وأجدني أتساءل عن سبب وجودي هناك».

فأين هؤلاء من البخاري رحمه الله؟

يقول أبو بكر الكلوذاني: مَا رَأَيْت مثل مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل (البخاري) كَانَ يَأْخُذ الْكتاب من الْعلم فَيطلع عَلَيْهِ اطلاعة فيحفظ عَامَّة أَطْرَاف

(١) هدي الساري مقدمة فتح الباري ص ٤٨٦.

الْأَحَادِيث من مرّة وَاحِدَة[1].

وَقَالَ أَبُو الْأَزْهَر: كَانَ بسمرقند أَرْبَعمِائَة مُحدث فتجمعوا وأحبوا أَن يغالطوا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل فأدخلوا إِسْنَاد الشَّام فِي إِسْنَاد الْعرَاق وَإِسْنَاد الْعرَاق فِي إِسْنَاد الشَّام وَإِسْنَاد الْحرم فِي إِسْنَاد الْيمن فَمَا اسْتَطَاعُوا مَعَ ذَلِك أَن يتعلقوا عَلَيْهِ بسقطة[2].

وكان البخاري نابغًا حفّظًا ليس بعد أن صار محدثًا فحسب، بل منذ بدأ الطلب وهو صغير السن، يقول حاشد بن إِسْمَاعِيل: كَانَ البخاري يخْتَلف [أي: يذهب] مَعنا إِلَىٰ مَشَايِخ الْبَصْرَة وَهُوَ غُلَام، فَلَا يكْتب! حَتَّىٰ أَتَىٰ علىٰ ذَلِك أَيَّام! فلمناه بعد سِتَّة عشر يَوْمًا، فَقَالَ: قد أَكثرْتُم عَليّ فاعرضوا عَليّ مَا كتبتم. فأخرجناه، فَزَاد علىٰ خَمْسَة عشر ألف حَدِيث، فقرأها كلهَا عَن ظهر قلب، حَتَّىٰ جعلنَا نحكم كتبنَا من حفظه[3]!

هذا هو البخاري رحمه الله، يستحق بجدارة أن يكون بطل العالم في الذاكرة علىٰ الدوام، ولستُ أحط من جهود المتسابقين وخوارقهم الفذة، لكن من الأولىٰ أن نشيد بهؤلاء العظام، وأئمتنا

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) هدي الساري مقدمة فتح الباري ص ٤٧٨.

الكرام، وحضارتنا البهية، وهذا غيض من فيض وفرد من عد، ورحم الله أئمة المسلمين.

٢٠١٦/٨/٢٤

موقع قصة الإسلام

ابن تيمية الذي لا تعرفه

مَن الذي يحمل شغفًا للمعرفة والعلم ولا يعرف ابن تيمية؟

من الذي لديه همة في المجد وعزيمة في الخير ورغبة في الإصلاح ولا يعرف ابن تيمية؟

كلما سلكنا سُبل العلم وضربنا فجاج الفنون تلقانا ابن تيمة.

كلما قلبنا كتابًا وجدناه بين صفحاته، وكلما حضرنا حوارًا فإذا اسمه تتقاذفه الألسن، فهو كالشمس في وضح النهار.

ورغم أن شمسه ساطعة، وبريقه مشرق، فهناك أيادٍ تريد أن تحجب رؤيتنا عن شمسه، لا أقول تحجب شمسه عنا، فأي يد هذه التي تطول الشمس ؟!

حسنًا.. سنتكلم عن شيخ الإسلام ابن تيمية..

لمحلة سريعة عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن الخَضِر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن

تيمية. وُلِد بحرَّان سنةَ ٦٦١هـ، ولما بلغ من العمر سبع سنوات انتقل مع والده إلىٰ دمشق؛ هربًا من وجه الغزاة التتار.

نشأ في بيت علم وفقه ودين، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير، وفي هذه البيئة العلمية الصالحة كانت نشأته، فطلب العلم علىٰ أبيه وعلماء دمشق، فحفظ القرآن وهو صغير، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وعُرف بالذكاء وقوة الحفظ والنجابة منذ صغره. ثم توسَّع في دراسة العلوم وتبحر فيها، واجتمعت فيه صفات المجتهد وشروط الاجتهاد منذ شبابه، فلم يلبث أن صار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة، قبل بلوغ الثلاثين من عمره.

في القرن السابع بدأ بريق عقيدة السلف الناصع بالخفوت علىٰ إثر ظهور وانتشار الكثير من العقائد الباطلة والمنحرفة وشمل هذا الانحراف عوام الناس وعلماءهم إلا القليل ممن رحم الله.. فالساحة الإسلامية آنذاك مضطربة وتعج بالكثير من الفرق والمقالات والمذاهب الكلامية والفلسفية، كذلك التصوف القبوري والحلولي الاتحادي والتعصب والتقليد المذهبي، وتأويل صفات الله سبحانه وتعالىٰ الذي كان يتصدره المذهب الأشعري، وكان يعتبره معتنقوه أنه هو مذهب أهل السنة في مقابل

عقائد المعتزلة والجهمية، يضاف إلىٰ ذلك وجود فرق الرافضة من إمامية وزيدية وباطنية درزية ونصيرية.

في كل هذه الأمواج المتلاطمة من الانحرافات نشأ وترعرع في خضمها شيخ الإسلام، كذلك ولد ابن تيمية والأمة لم تصحو بعد من ضربات التتار والصليبيين بل استمرت حتىٰ عند تصدره للإمامة والعلم.

ما لا تعرفه عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

كثير ما يتداول الإعلام عبارات مجتزئة عن ابن تيمة يرمونه فيها بالتشدد والغلو والتكفير، وهذه العبارات بالإضافة إلىٰ أنها مجتزئة من سياقها، فهي أيضًا منزوعة العهد بتاريخها، فكما قدمتُ عايش ابن تيمية أمواجًا متلاطمة من المذاهب والفرق والحروب، لكن هناك جانب لا يتعرفه الكثير وهو جانب التيسير والاجتهاد في فقه ابن تيمية، فكثيرًا ما يخالف ابن تيمية أقوال المذاهب الأربعة، وتجد في اختلافه اتصالًا بالأدلة وتيسيرًا علىٰ الناس، حتىٰ تجد مَن يخالفه في أغلب أرائه يأخذ بأقواله الفقهية هذه، منها:

- القول بقصر الصلاة في كل ما يسمىٰ سَفرًا، طويلًا كان أو قصيرًا.
- القول بأن من أكل في شهر رمضان معتقدًا أنه ليل فبان أنه نهار، لا قضاء عليه وصومه صحيح.

- القول بأن المتمتِّع يكفيه سعي واحد بين الصفا والمروة، كما هو في القارن والمُفْرد.

- القول بجواز المسح علىٰ الجوربين دون اشتراط أن يكونا صفيقين يمكن تتابع المشي عليهما، كما اشترط الفقهاء، فإذا لم نجد قول ابن تيمية هذا لكانت كل جوارب عصرنا (الشرابات) مما لا يجوز المسح عليه علىٰ مذهب الفقهاء.

- القول بجواز التيمم مع وجود الماء، لمن خاف فوات العيد والجمعة أو وقت صلاة أخرىٰ من الصلوات المكتوبة إذا استعمل الماء.

- القول بتوريث المسلم من الكافر الذمِّيِّ، وله في ذلك بحث طويل.

- القول بعدم وقوع الطلاق بالحلف به إذا حنثَ، ولم ينوِ به طلاقًا، وليس علىٰ الحالف حينئذٍ إلا كفارة اليمين. وهو المعتمد في فتاوىٰ دار الإفتاء المصرية وكثير من البلدان العربية.

- القول بأن الطلاق ثلاثًا بلفظ واحد لا يقع إلا واحدة. وهو أيضًا المعمول به فتاوىٰ دار الإفتاء المصرية.

- القول بأن تارك الصلاة عمدًا لا قضاء عليه ولا يشرع له القضاء، بل عليه الإكثار من النوافل رجاء غفران الله له.

- القول بأن سجود التلاوة لا يشترط له طهارة، كما هو مذهب ابن عمر واختيار البخاري.

تلك طائفة من اجتهادات ابن تيمية –وغيرها كثير- التي عُدَّت من مفرداته؛ لأنه خالف بها فقهاء المذاهب الأربعة المعروفة، أو خالف علىٰ الأقل الأقوال المشهورة المعروفة لهم، وهي تدل علىٰ باع طويل في الاجتهاد، وعلىٰ شجاعة في الجهر بما رآه حقًّا وإن خالف غيره من جِلَّة الفقهاء، وإن حصل له بلاء بسبب ما يجهر به، فقد دخل السجن سبع مرات بسبب آرائه الفقهية والعلمية، ولم يتهم مرة بالتحريض أو التأليب علىٰ الدولة أو الحكم.

بل لما سجن في قلعة الإسكندرية ألف رسالة في إصلاح السجون أرسل بها إلىٰ السلطان محمد بن قلاوون شرح فيها حقوق السجين وواجبات الدولة نحوه، ودعا فيها إلىٰ إنهاء دور الضامن الذي كان يقدم خدمات للسجناء مقابل أجور يأخذها ويعطي جزءًا منها إلىٰ الدولة.

وأثرت رسالة ابن تيمية في السلطان الذي طبق عددًا من الإصلاحات المقترحة، منها تعليم السجناء بعض المهن وتهيئة اندماجهم بالمجتمع والإنفاق عليهم ورعايتهم صحيًا، وتخفيف

المحكوميات بحسن السلوك. واستمر ابن قلاوون في إصلاح السجون حتىٰ بعد وفاة ابن تيمية بسنوات طويلة.

ويرجح (هنري لاوست) في ترجمته لكتاب «السياسة الشرعية» إلىٰ الفرنسية، أنَّ ابن تيمية صنّفه ما بين (٧٠٩- ٧١٢هـ)، في أعقاب استدعاء ابن قلاوون له من منفاه بالإسكندرية، وبناءً علىٰ طلبه فهو يرىٰ أن هناك مطابقة واضحة بين الخطط المرسومة في كتاب «السياسة الشرعية» والإصلاحات المقترحة فيه، والتدابير والإصلاحات التي قام بها محمد بن قلاوون في هذا الوقت.

وهنري لاوست -السابق هذا- مستشرق فرنسي يُعَد أهم من تخصصوا في ابن تيمية، وأكثر المستشرقين إنصافًا له، قضىٰ أكثر من ثلاثين سنة في دراسة عصر المماليك، والحنابلة، وابن تيمية بوجه خاص، وتَرْجَمَ كتاب «السياسة الشرعية» إلىٰ الفرنسية، وقَدَّمَ له مقدمة قيمة وله دراسة بعنوان: «شرائع الإسلام في منهج ابن تيمية».

والحق أن هناك دراسات كثيرة للغرب أنصفت ابن تيمية فهم ينظرون إليه علىٰ أنه ذو فكر معتدل وصاحب علم وبراعة في شتىٰ العلوم الشرعية والفكرية.

وبالفعل تنوعت اسهامات ابن تيمية في كافة العلوم الشرعية والإنسانية، فتجده حاضرًا بقوة في التاريخ والمنطق والفلسفة

والاجتماع والتصوف، وتأثر به الكثير، فابن خلدون في المقدمة تأثر بقضايا طرحها ابن تيمية في ثنايا كتبه وبنىٰ عليه النظريات الاجتماعية الإبداعية والسابقة لزمانه، وكذلك تأثر بها المؤرخ (أرلوند توينبي) في كتابه: «مختصر دراسة التاريخ»، وحتىٰ (فرنسيس بيكون) تأثر بابن تيمية في نقده لمنطق أرسطو واتّبع الخطوات نفسها التي أقام عليها ابن تيمية مشروعه في هذا الجانب!

كذلك تجد مفكرًا علمانيًا من أصول شيعية مثل (علي الوردي) يثني علىٰ فكر ابن تيمية في كتبه كما في كتاب: «منطق ابن خلدون» وكتاب: «مهزلة العقل البشري».

ولا يبعد إذا قلنا إن المنهج التجريبي الذي قام عليه بنيان الحضارة الغربية تأثر كذلك بابن تيمية.

تقول البروفيسورة (أنكه فون جولن) الأستاذة بجامعة برن للعلوم الإسلاميَّة: «كان ابنُ تيمية -باتِّفاق خصومِه وأنصاره- شخصيَّة ذاتَ طراز عظيم؛ فهو فقيه ومتكلّم ناقد للمنطق الأرسطي، والتصوف من جهة، وناقدٌ استثْنائي وباحثٌ أخلاقي من جهة أخرىٰ».

وتقول أيضًا: «يمثل نقد ابن تيمية بدرجة ما ذروة تراث الخطاب المعارض للمنطق بطريقة اختيار ذكية ومبتكرة للحجج الموجودة

بالفعل ولكنها متناثرة... ولا يزال تاريخ دحض ابن تيمية يحتاج إلىٰ الكثير من الكتابات...».

ويقول جورج تامر (المدرس في جامعة فريدريش ألكسندرفي ألمانيا): «إن ابن تيمية هو أحد عمالقة التاريخ الفكري الإسلامي، إذ تبرز كتابته بوضوح مدىٰ براعته في العلوم النقلية الإسلامية والفلسفة والكلام، وعلاوة علىٰ ذلك فقد كان مجتهدًا موسوعيًا لم يخضع بالكلية للمذهب الحنبلي في الفقه، ولكنه قدم آراءه الخاصة حول الموضوعات الدينية والاجتماعية والسياسة المهمة... ومما لا شك فيه يمكن قطعًا تحديد أوجه التشابه بين كل من أراء ابن تيمية وتعاليم التجريبية البريطانية، إذ يمكن إيجاد المكافئ لكل من التمثيل والقياس في كل من أراء جون اسيوارت ميل وجون لوك، كما أن مل وديفيد هوم يؤكدان علىٰ أهمية دور الاستقراء والتمثيل بناء علىٰ التجربة والإدراك الحسي من أجل حصول المعرفة..ويعتبر نقده للمنطق الأرسطي استمرارًا لمواقف الرواقيين والشكوكيين، وسابقة للتجريبية الحديثة المبكرة...».

عاش ابن تيمية حياته مجاهدًا بالسنان والبيان، فهو بين دعوة وعلم واجتهاد وتجديد وإفتاء ومناظرة، وبين معارك وحروب وجراح وآلام، فهو عالم مجاهد، كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم إن رأىٰ من بعضهم هلعًا

أو رِقة أو جبانة شجّعه وثبّته وبشّره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة وبين له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزال الله عليهم السكينة.

ومن أهم المعارك التي أبلىٰ فيها بلاء حسنا معركة معركة «شَقحَب» أو مرج الصُفر، التي كانت بين المماليك بقيادة الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر والشام وبين المغول التتار بقيادة قتلغ شاه نويان (قطلوشاه) نائب وقائد محمود غازان إلخان مغول فارس، والتي انتهت بانتصار المسلمين، محطمين طموحات محمود غازان في السيطرة علىٰ الشام والتوسع في العالم الإسلامي.

بل لما أراد ابن تيمية أن يفك أسرىٰ المسلمين من المغول علم أنهمم أسروا من اليهود والنصارىٰ الذين هم من أهل الذمة في بلاد المسلمين فلم يرضىٰ ابن تيمة إلا أن يفك أسراهم كذلك، فيقول عن ذلك: «وَقَدْ عَرَفَ النَّصَارَىٰ كُلُّهُمْ أَنِّي لَمَّا خَاطَبْت التَّتَارَ فِي إطْلَاقِ الْأَسْرَىٰ وَأَطْلَقَهُمْ غازان وقطلو شاه وَخَاطَبْت مَوْلَايَ فِيهِمْ فَسَمَحَ بِإِطْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ لِي: لَكِنَّ مَعَنَا نَصَارَىٰ أَخَذْنَاهُمْ مِنْ الْقُدْسِ فَهَؤُلَاءِ لَا يُطْلِقُونَ. فَقُلْت لَهُ: بَلْ جَمِيعُ مَنْ مَعَك مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ ذِمَّتِنَا؛ فَإِنَّا نَفْتَكُّهُم وَلَا نَدَعُ أَسِيرًا لَا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ. وَأَطْلَقْنَا مِنْ النَّصَارَىٰ مَنْ شَاءَ اللهُ.

فَهَذَا عَمَلُنَا وَإِحْسَانُنَا وَالْجَزَاءُ عَلَىٰ اللهِ»[1]. فهذه سماحته ونصرته للمظلومين لا يفرق بين مسلم من أهل الملة ولا كتابي من أهل الذمة، ويقول ابن القيم عن أستاذه ابن تيمية:

«وما رأيته يدعو علىٰ أحد منهم قط (يقصد خصومه) وكان يدعو لهم، وجئت يومًا مُبشرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذىٰ له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلىٰ بيت أهله فعزّاهم وقال: «إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلىٰ مساعدة إلا وساعدتكم فيه». ونحو هذا من الكلام. فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[2].

في ظل هذه الحياة المناضلة لم يتزوج ابن تيمية، لكنه ترك لنا علماء أفذاذًا يكفي إذا ذكروا ذكر ابن تيمية، فمن أهم تلاميذه: ابن القيم الجوزية، والإمام الذهبي، والإمام الفقيه ابن مفلح، الإمام شمس الدين المقدسي، الحافظ ابن رجب الحنبلي، الحافظ الكبير جمال الدين المِزِّي... وغيرهم الكثير.

تأثر الكثير بابن تيمية، ورفعه كثير من العلماء إلىٰ درجات عالية وهناك من العلماء مَن اختلف معه في أمور العقيدة والفقه، وهناك

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ٦١٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٤٥.

من قدح فيه، وصدق الشيخ محمد أبو زهرة حين قال عنه: «إن المُشاهَد قديمًا وحديثًا أن الرجل الذي يختلف الناس في شأنه بين إعلاء وإهواء، لا بد أن يكون رجلًا كبيرًا في ذات نفسه، وعظيمًا في خاصَّة أمره، له عبقرية استرعت الأنظار، واتجهت إليها الأبصار... وكذلك كان ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد كان عظيمًا في ذات نفسه، اجتمعت له صفات لم تجتمع في واحد من أهل عصره، فهو الذكي الألمعي، وهو الكاتب العبقري، وهو الخطيب المصقع، وهو الباحث المنقب... وقد آته الله لسانًا مبينًا، وقلبًا حكيمًا، وقلمًا عليمًا».

٦ مايو ٢٠٢٠

موقع رقيم

آه لو لعبت يا زهر

ثقافة وليست غِنوَة

كثير من الألعاب تفصح عن شخصية لاعبيها، فلعبة «الشطرنج» مثلًا تدل -في الغالب- علىٰ شخصية ذكية قيادية قادرة علىٰ التدبير والتقدير وإحكام الخطط وتحمل النتائج، وما ذلك إلا أن هذه مهارات اللعب بها.

وعلىٰ النقيض لُعب «الطاولة» و«الزهر» في الغالب تدل علىٰ شخصية

فارغة اعتمادية مستسلمة لتقدير الحظ لها، إمّا سُلم قفز بها إلىٰ أعلىٰ، أو ثعبان يلتهم أمانيها ويتركها أرضًا.

ولا غرابة إذا جاءت نصوص شرعية بتحريم اللعب بـ «الزهر» المعتمدة في مقامها الأول علىٰ توجيه الحظ.

فشخصية المسلم التي يكونها الإسلام شخصية عاملة مجتهدة تُخَطِّطُ وتدبر وتقود شئونها بنفسها، وهي من قبل معتمدة علىٰ ربها متوكلة عليه، لا تعقد آمالها علىٰ ضربة حظ أو دحرجة «زهر» متقاعدة منتكسة مشدوهة إلىٰ ما يضفي عليها الأموال أو يغير أحوالها.

لقد تحولت لعبة الحظ إلىٰ ثقافة عمت الكثيرين، فهو لا يعمل ولا يجتهد ولا يدبر ولا حتىٰ يحقق معنىٰ التوكل في الأخذ بالأسباب، بل يتواكل علىٰ ربه، حتىٰ تغنىٰ البعض صادحًا: (آه لو لعبت يا زهر واتبدلت الأحوال.. وركبت أول موجة في سكة الأموال).

كثيرون هم المستعدون لركوب الموجة.. لكن مَن منهم قرر أن يصنع الموجة؟

قدم عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المدينة وقد صادرت قريش جميع أمواله أثناء هجرته وكان تاجرًا غنيًا عصاميًا فلم يعبأ بالمال، فهو عنده وسيلة وليس غاية، وفي المدينة آخىٰ النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من هو ثراءً وتجارة، فقال له سعد: إني

أكثر الأنصار مالًا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هَويتَ نزلتُ لك عنها، فإذا حَلَّت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سُوق فيه تجارةٌ؟ قال: سوق بني قينُقاع (وهو تحت إحكام اليهود)، فغدا إليه عبد الرحمن رضي الله عنه فأتىٰ بأقطٍ (نوع جبن) وسمنٍ يقدرا بأربعة دراهم وباعهما[1]، ثم تابع الذهاب، حتىٰ تزوج وأمهر وأولم إلىٰ أن مات وقد ترك ثروة تقدر بثلاثة ملايين ومائتي ألف دينار.

لم يركب موجة الأموال، بل صنع شلالًا.. ولم يلعب بالزهر، ولكن أحكم الخُطة وتوكل علىٰ ربه...

قال النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[2].

وسيبقىٰ بين الناس من يعمل فكره، ويتعب ذهنه، ويحرك أحجار الشطرنج، ثم يتحمل النتائج.. ومن يكتفي بدحرجة الزهر، منتظرًا أين يوجهه، فإذا أخفق صدح مغنيًا: (آه لو لعبت يا زهر).

٢ نوفمبر ٢٠١٧

موقع رقيم

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٢٠٤٨).

(٢) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني.

الزي الأزهري.. هوية وانتماء

لابد أن نعي -بدايةً- أن للملابس واختيارها وألوانها تأثيرًا في النفوس، وفي هذا بحوث متخصصة في علم النفس، فثيابك تأثر فيك، وتؤثر في الناس من حولك، وهذا معلوم ومشاهد ومشهور، فصاحب الهيئة المبتذلة -بداهةً- يستنفر الناس منه، وصاحب الهيئة المنمقة يقترب الناس إليه، ولما كان أصحاب الكلمة يحتاجون إلىٰ جذب الناس إليهم، كانت هيئتهم وملابسهم من أهم ما يحتاج إلىٰ عناية، وهذا في كل المجالات، الفنانون والكُتاب والوزراء والرؤساء.. إلخ.

ولما كان الداعية أو الخطيب يحتاج إلىٰ هذا الجذب وهو أولىٰ الناس إلىٰ اجتماع الناس حوله، كانت العناية بمظهره آكد.. فحسن مظهر الداعي أحد الأسباب المُعينة علىٰ التأثير حتىٰ يراه المستمع في صورة ترتاح لها النفس قبل أن يبدأ حديثه، ولذلك قال الله تعالىٰ للنبي ﷺ الداعية الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١-٤].

وحسن المظهر، وبهاء الثياب أحد أسباب الثقة بالنفس وهذا يجعل المُتكلم يُجَوِّد قوله ويحسنه وبالتالي يكون محل تقدير من مستمعيه بما يقدم لهم من كلام حسن مؤثر مفيد، وهذا ما أكده أحد علماء النفس حين أرسل إلىٰ مجموعة من الخطباء وسألهم

عن تأثير الملابس الجميلة والبهية فيهم، فشهد جميعهم دون استثناء أنهم حينئذٍ يملكون زمام أنفسهم ولا يخطئون.

وفكرة الزي الموحد -في أي مجال- هي فكرة هوية وانتماء من الدرجة الأولىٰ، لذلك تحرص كبرىٰ الشركات علىٰ تطبيق الزي الموحد بين أفرادها، فحينما يُعرف أن هذه الفئة تشغل منصبًا معينًا، ينظر لهم بعين الوقار والاهتمام، فمثلًا ارتداء الملابس العسكرية، تتحدث عن رتبة صاحبها، والجهاز الأمني الذي ينتمي له، وكذلك عند الأطباء والممرضين وغيرهم..

لذا لا بد مجتمعيًا الحفاظ علىٰ صورة الزي الذي يدلل علىٰ أي كيان له تأثير في البلد ونريد له الاستمرار، ولما كان الأزهر المؤسسة الرسمية للشئون الدينة، وبات تاريخيًا لأبنائه زيًا واحدًا، وجب علينا أن نحافظ علىٰ هذا الزي، حتىٰ يكون لهم كلمة مسموعة، وتأثيرًا بين الناس، فاحترام هذا الزي احترام للشخص الذي يرتديه، واحترام الشخص احترام لما معه من علم بالقرآن والسنة..

وحقيقة الأمر أن الزي الأزهري في مكوناته ما قد لبسه النبي ﷺ، مثل الثوب «القفطان» والجبة والعمامة، إلا أن الطربوش أمر حادث عن طريق الدولة العثمانية.

فهذه الصورة قريبة جدًا لما كان يلبسه النبي أثناء خطبه وتعليمه للصحابة، لذا كان الاحترام لها آكد أكثر من مرة.

فإهانة هذا الزي عن طريق الأعمال الدرامية، وارتداؤه في أعمال هزلية ساخرة، هو في الحقيقة إهانة للعلم الذي يقدم، وللصورة الذهنية عن المشايخ والعلماء، والتقليل من شأنهم، والجرأة عليهم في الوقت الذي كانت لهم كلمة مسموعة، وهذا ما وصلنا إليه الآن! مع الأسف.

أما عن ارتداء غير المتخصص للزي الأزهري، وممارسة الدعوة والإفتاء به، فهو مثل جريمة ارتداء زي ضابط شرطة وممارسة عمله، فهو يضفي شرعية مزيفة له بهذا الزي، بل قد يمرر الكثير من الجرائم والناس لا تدري، وهذا ما نراه من هؤلاء غير المتخصصين الذين يتكهنون في الدين ويملئون وسائل الإعلام.

لذا وجب علىٰ الدولة أن تسن القوانين لمن يتجرأ علىٰ هذا الفعل، وينتحل صفة شخصية أزهرية بارتداء الزي الأزهري، وعلىٰ المؤسسة الدينية متابعة الأمر، وإصدار اللوائح، ومعاقبة من يتخلف عن زيه من الأئمة..

فالحقيقة أن بعض الأئمة أيضًا يُسهم في الاستهزاء بهذا الزي وازدرائه، فهو يتخلف عنه في حديثٍ تلفازي ويرتدي بدلة أنيقة، أو يجعله في مكتب المسجد يرتديه فوق المنبر، أو أن سلوكه لا

يتوافق مع قيمة هذا اللباس، فعلىٰ المؤسسة الرسمية تتبع هؤلاء أيضًا وتقويمهم.

١٢ نوفمبر ٢٠١٧

موقع رقيم

أي الذابحَين أنت؟

يتجهز المسلمون في هذه الأيام المباركات لذبح الأضاحي، وكذا الحُجَّاج سيذبحون هديهم في الوقت نفسه، ومشهد الذبائح وإهراق الدم في يوم النحر (يوم العيد الأكبر) يجعل مخيلتنا تعود مباشرة إلىٰ ذكرىٰ نبي الله إبراهيم عليه السلام والاستنان بسنته في الذبح والتضحية، وذكرىٰ إبراهيم تثير في النفس حديثًا شائقًا في معاني وتجليات التضحية لله، لكن قبل أن نقف هذه الوقفة مع قصته، فإننا سنتجاوز زمانه كثيرًا، لنقف علىٰ صورة متناقضة من آبنائه وحفدته من بني إسرائيل، وذلك من باب «وبالضد تتميز الأشياء».

مجرد بقرة:

في سورة البقرة صوَّر الله مشهدًا في غاية الأهمية، لذلك جعله اسمًا وعَلمًا للسورة، وهي أطول سور القرآن وأجمعها لأحكام الدين، وذلك أنه لمَّا قَتل بنو إسرائيل النفس التي حرم الله قتلها إلا

بالحق، وحصل الاختلاف في القاتل، طلبوا من موسىٰ أن يخبرهم بالقاتل، فأراد الله أن يختبرهم بذبح بقرةٍ، فكان هذا الحوار:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ ..

وهذه الصيغة عند المؤمنين تكفي للاستجابة والتنفيذ. فالذي يخبر بالأمر هو رسولهم، وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنما هو أمر اللّه، الذي يسير بهم علىٰ هداه، أمر الله، فمنذا يعترض علىٰ أمره؟ لكن كان جوابهم..

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتهزأ بنا يا موسىٰ، نسألك عن أمر القتل، فتأمرنا بذبح بقرة! كان جوابهم سفاهة وسوءَ أدب، واتهامًا لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف اللّه -فضلًا علىٰ أن يكون رسولًا من عنده- أن يتخذ اسم اللّه وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس!!

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

وكان في هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلىٰ أنفسهم، ويرجعوا إلىٰ ربهم، وينفذوا أمر نبيهم، فيمدوا أيديهم إلىٰ أي بقرة فيذبحونها، فإذا هم مطيعون لأمر اللّه، منفذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم، فإذا هم يسألون:

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾

والسؤال عن الماهية في هذا المقام -وإن كان المقصود الصفة- إنكار واستهزاء.. ما هي؟ هي بقرة.. بقرة وكفىٰ!

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾

وهنا يأخذهم إلىٰ تفصيل قريب، سهل الوصول إليه، إنها ليست صغيرة ولا كبيرة، بل وسط بين الأمرين، ويردهم موسىٰ إلىٰ الجادة في نهاية جوابه حتىٰ يقطع جدلهم، وينصحهم في حزم أن يمتثلوا الأمر، ولا يشدّدوا فيشدد اللّه عليهم، فراحوا يسألون عن اللون!

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾

وهكذا ضيقوا علىٰ أنفسهم دائرة الاختيار فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة -مجرد بقرة- بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها، وهي بعد هذا وذاك ليست هزيلة ولا شوهاء: «**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**».. وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم علىٰ فراهة وحيوية ونشاط والتماع!

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم، يُعقِّدون الأمور، ويشددون علىٰ أنفسهم، فيشدد اللّه عليهم. لقد عادوا مرة أخرىٰ يسألون عن الماهية:

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

حتىٰ في اعتذارهم عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ جاءوا بقول باهت: «**إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا**».. والحقيقة أن البقر كله متشابه، وأن الله لم يرد بدايةً تميزًا منها، كان يكفي أيٌّ من هذا المتشابه، إنَّ الله لا يريد نوع البقر ذاته ولا هو بحاجة لشيء من امتيازاته، الذي أراده الله منهم هو الاستجابة لأمره، والطاعة له سبحانه. ولم يكن بد -كذلك- أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيدًا، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرًا وضيقًا، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة،كانوا في سعة منها وفي غنىٰ عنها:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾

لقد طال الحوار جدًا، وكثر الجدل، ولك أن تضيف المسافات بين «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ» وبين «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ» من دعاء ولجوء إلىٰ الله من موسىٰ عليه السلام وإجابة من رب العالمين، في كل طلب من مطالبهم!!

ولم تعد بقرةً متوسطة العمر، صفراء فاقع لونها فارهة فحسب. بل لم يعد بد أن تكون -مع هذا- بقرة غير مذللة ولا مدربة علىٰ حرث الأرض أو سقي الزرع، وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة. هنا فقط! وبعد أن تعقد الأمر، وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[البقرة: ٦٧ - ٧١].

أي: فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف المطلوبة ووجدوها، فلما اهتدوا إليها ذبحوها. وهذا عند البلاغيين يسمىٰ إيجاز بالحذف، وسببُه -حسب ظني- أنه لما طال الحوار، وطال التلكؤ واللجاج، حُذف ما قد يكون أطول وأعقد، ليتخيله القارئ بأوسع مما يمكن أن يكون، فإن كان حالهم كذلك في استفهام الأمر، فكيف عن حالتهم وقت تنفيذه؟ والتعقيب بقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ يرسم سمة اللجاجة والتعنت وتمحل المعاذير والتلكؤ في الاستجابة، وفي الأثر: «**إنَّما أُمِرُوا بأدنىٰ بَقَرةٍ، ولكنَّهم لمَّا شدَّدوا علىٰ أنفسِهم شدَّد اللهُ عليهم، وايمُ اللهِ لو أنَّهم لم يَستَثْنوا** (يعني قولهم: وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ) **ما بُيِّنَتْ لهم آخِرَ الأبَدِ**»[1].

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٢٠٥)، وقال ابن حجر: وهو معضل. وأخرجه بِنَحْوِهِ سعيد بن مَنْصُور في سننه، عَن عِكْرِمَة مَرْفُوعًا، وقال محققه: سنده ضعيف لإرساله، وهو صحيح إلىٰ عكرمة.

ذبحٌ فريد!!

ولنعود إلىٰ ذكرىٰ إبراهيم عليه السلام، كان عليه السلام أبًا شفوقًا قد حُرم الذرية، حتىٰ إذا بلغ الشيخوخة وكاد أمله ينقطع من الولد، إذا بالذي اصطفاه خليلًا في الدنيا يرزقه غلامًا زكيًا وفيًا، حتىٰ إذا بلغ معه السعي، وأصبح يليق بوراثة الحكمة والنبوة، أو بمعنىٰ آخر أصبح الساعد الأيمن لهذا الشيخ الكبير، يعتمد عليه في المهمات والملمات، وبنىٰ معه أول بيت وضع للناس ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧].

حتىٰ إذا بلغ هذه السن المنتجة النافعة التي تملأ قلب الأب سرورًا وبهجة وتكحل عينيه قرة وجمالًا، إذا بالذي يُنعم عليه يمتحنه برؤية منام يذبح فيها هذا الولد الذي قر عينه بعد الكبر، ورؤيا الأنبياء وحي[1]، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾، لقد سارع إلىٰ ابنه وحبيبه يعرض الأمر عليه ليرىٰ رأيه فيه، أي مشاعر أصابته وقتها؟ وأصابت ابنه لحظة سماعه؟ وأصابت الأمّ كذلك؟ ولكنّ الابن العليم الحكيم -كما وصفه ربه- كان عند حسن ظن أبيه كما كان

(١) روىٰ هذا الأثر، الحاكم في المستدرك (٣٦١٣)، والطبراني في الكبير (١٢٣٠٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده حسن.

أبوه عند ظن ربه سبحانه، فبادر يقول لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات: ١٠١-١٠٢].

إنه لم يكن أمرًا صريحًا من الله مباشرة، هناك فرصة للتهرب.. فرصة للتمحل.. فرصة للتأويل! ومع ذلك أقرّا أنه أمر الله ويجب نفاذه والاستجابة السريعة له ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ ، فالأمر ليس أمرك، فأنت الحنون الشفوق وأنت الرحيم الرقيق، والله أرحم منك، وأكرم وأبر، فما دام قد أمر بالذبح فهو الرحمة بعينها، وهو والحنان عين الحنان.

ويسير إبراهيم وإسماعيل إلىٰ محل التنفيذ، وفي هذه اللحظات - التي تُسكَب فيها العبرات، وتُحتَبس من أجلها الأنفاس داخل الصدور، فلا ترىٰ إلا المدامع في العيون- وضع إبراهيم عليه السلام السكين علىٰ رقبة ولده ليحزها، فسُلِبَت السكين حدها كما سُلِبت النار -من قبل- إحراقها.. وجاءت البشرىٰ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٦].

إنه موقف فريد لم يحدث من قبل وما سمعنا أنه حدث من بعد، يقول ابن القيم: ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الاستغراق في حب الآمر «الله» لما هان مثل هذا المأمور؛ فلذلك جعلت آثارها مثابة للقلوب تحن إليها أعظم من

حنين الطيور إلىٰ أوكارها[1].

أي الذابحين أنت؟

إن الموازنة بين الموقفين تظهر الفرق الشاسع والهوة السحيقة بين العبودية لله في أعلىٰ وأجل معانيها، وبين المراوغة وسوء الأدب مع الله تعالىٰ وأنبيائه، وأي موازنة بين من أمره الله بذبح ولده فنفذ، وبين من أمره ببقرة فماطل!!

أي مقابلة بين «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**» وبين: «**إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**»؟؟

أي التقاء بين «**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**» وبين «**افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**»؟؟

الأمر في حقيقته صلة بين قلوب العباد، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة باللّه، والاستعداد لتصديق ما يأتي من عنده. إمّا أن تكون صلةً حقيقيةً بالاستجابة والاستسلام والتنفيذ، أو أنها مقطوعة بالتلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان!

ولعلنا نلمح قضية صفاء الحب لله وإخلاصه، فالأمر كان بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان؛ لأنها من جنس ما عبد بنو إسرائيل،

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٣).

وهو العجل، ليهون عندهم أمر تعظيمه. ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة: ٩٣].

أما إبراهيم، فـ«لمّا كان منصب الخُلة وهو منصب لا يقبل المزاحمة بغير المحبوب وأخذ الولد شعبة من شعاب القلب، غار الحبيب علىٰ خليله أن يسكن غيره في شعبة من شعاب قلبه فأمره بذبحه، فلمَّا أسلم للامتثال خرجت تلك المزاحمة وخلصت المحبة لأهلها فجاءته البشرىٰ: وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ»[1].

فرق كبير بين الذَابحين..

فرق كبير، بين: «**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**» وبين: «**افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**»!!

لقد مضت السنون علىٰ القصتين وبقيت الشعيرة في أمتنا، أن نبتلىٰ بالذبح لله وحده، وأن نهرق من أجله دماء الأضاحي والهدي، فأي الذابحين أنت؟

إن الأضحية رمز، والرمز يحمل في طياته الكثير من المعاني، إنها وقفة مع النفس لمحاسبتها ومعاتبتها وتخليصها من كل ما علق بها، علينا بتهذيب القلوب قبل ذبح الأضحية فالله يقول سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

---

(١) السابق نفسه.

ولستُ أعني الأضحية في ذاتها، بل إنني أقصد كل التكاليف والأوامر الشرعية من الله ورسوله، أن نحقق الاستجابة الحقيقية بحب وصفاء ورضا واحتساب للأجر، بنو إسرائيل ذبحوا وإبراهيم ذبح (وإن كان لم ينفذ) كلاهما ذبح في الأخير، لكن أيهما أقرب إلىٰ الله، الذين عبَّر عنهم بقوله: «**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**»، أم الذين قال عنهم: «**أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ... قَدْ صَدَّقْتَ**»؟!

كُلنا يفعل الطاعة -إذا فعل- لكن أيّنا يفعلها باستسلام، وخفة وحب وإخلاص ورضا عن ربه؟ وأيّنا يفعلها وهو متثاقل متأفف متألم يعدد مشاقعها ويسعىٰ في تخفيفها وتأويلها والتعذر عنها؟

أيّنا الذي حقق العبودية بمعناها الحقيقي؟

سؤال لا بُّد من إجابة صادقة عنه.. وكل عام وأنتم بخير.

٢٠١٨/٨/١٤

شبكة الألوكة

موقع قصة الإسلام

موقع رقيم

***

الإلحاد والردة مرة أخرى[1]

في المقال المنشور بجريدة الشروق تحت العنوان نفسه، يبدأ الكاتب حديثه بكلام عاطفي جذاب، حينما يذكر آيات حُرية الاعتقاد وعدم الإكراه في الدين، ولا أدري ما علاقة هذه الآيات بالرِّدة؟

هذه الآيات تتحدث عن الكافر الأصلي، الذي لم يسبق له إسلام، فهو مخير منذ البداية لا يُجبر ولا يكره علىٰ دخول الدين، وأحكامه معلومة في الإسلام.

أما المرتد، الذي دان لله بالإسلام، فإن فارقه فإن حكم الله عزوجل فيه القتل في الدنيا والنار في الآخرة.

لكن الكاتب لا يعجبه حكم القتل، وجاء بآيات القرآن ليبرهن علىٰ أن عقوبة المرتد عقوبة أخراوية، أما في الدنيا فهو حر!!

ونقول: وهل ذكر عقوبة الآخرة ينفي وجود عقوبة في الدنيا؟

---

(١) نُشر هذا المقال تحت عنوان: «الرد الحاسم علىٰ مقالة (باسم)» للرد علىٰ مقالة نشرها د. باسم يوسف في جريدة الشروق يوم الثلاثاء ١١ يونيو ٢٠١٣ وكانت تحمل العنوان نفسه: الإلحاد والردة مرة أخرىٰ «٢».

وقد أحببت إيداع المقال كتابي بشكل عام وحررته مكتفيًا بالرد علىٰ الفكرة لا الشخص، حتىٰ يكون أنفع للقارئ، خصوصًا أنه ينقل عن كتابات سيد قمني وجمال البنا بالأخص كتاب الأخير هذا: «تفنيد دعوىٰ حد الردة» فهو يكاد ينسخ منه نسخًا دون أن يشير إليه وفي كلامهم جملة من الشبهات والمغالطات تحتاج إلىٰ بيان.

فمثلًا لو قرأنا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[النساء: ١٠].

هل معنىٰ الآية أن آكل أموال اليتامىٰ إن ثبت نهبه واستيلاؤه علىٰ الأموال لا يعاقبه الحاكم في الدنيا؟؟

هل نكتفي بعقوبة الآخرة ولا نأتي بالأموال المنهوبة؟؟

هل يُترك هذا الناهب المغتصب في جريمته سائحًا؟؟

هذا كلام يستحيل أن يقول به إنسان في جريمة لم ينص الشارع علىٰ عقوبة دنياوية لها ووَكَلَ أمرها إلىٰ الحاكم. فكيف نقبله في جريمة ينص الشارع علىٰ عقوبتها وحَدّها في الدنيا، فقد روىٰ إمام الحديث الإمام البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(١).

لكن من الظاهر أن الكاتب لا يحتج بالسنة، أو أنه يسير علىٰ نهج المشككين، فيقول:

(فلماذا بعد هذا الحكم الواضح نتجاهل كتاب الله ونضيع وقتنا في الدفاع عن صحة حديث يعتبر من أحاديث الآحاد لمجرد أنه ذكر في البخاري؟ هل البخاري أكثر قدسية من القرآن؟ لقد أتت الأحاديث شارحة للدين والقرآن وليس ناسخة لآيات الله)!!

(١) رواه البخاري (٣٠١٧، ٦٩٢٢).

وفي مقالته جُملة من الإفتراءات لا ينبغي أن نمررها هكذا، لكن قبل الرد يتبادر إلىٰ ذهني حديث النبي ﷺ: «**يُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ**»[1].

ولعل كلام الكاتب شرحًا عمليًا للحديث**!!!**

والكاتب يُشعرنا أن الحديث أنفرد بروايته البخاري، وهو يتكلم في غير صنعته لا يعلم عن ذلك شيئًا، فالحديث رواه أحمد والبزار وأبو داود والنسائي والترمذي والطبراني والدارقطني والبيهقي وابن ماجه وأبو يعلىٰ وابن حبان والحاكم. كلهم بالإسناد الصحيح.

ويكفينا بكل فخر رواية البخاري له في صحيحه، ولا حاجة لرواية غيره بعد أن أخرجه البخاري في صحيحه، وهذا ما يغيظ الكاتب، أن صحيح البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل.

قال الإمام النووي: (اتفق العلماء رحمهم الله علىٰ أن أصح الكتب بعد القرآن الصحيحان: البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة

(١) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي، وصححه الألباني.

بالقبول). **وقال في موضع آخر**: (وتلَقِي الأمة بالقبول إنما أفادنا وجوب العمل بما فيهما، وهذا متفق عليه... وإنما يفترق الصحيحان، وغيرهما من الكتب في كون ما فيهما صحيحًا لا يحتاج إلىٰ النظر فيه، بل يجب العمل به مطلقًا، وما كان في غيرهما لا يعمل به حتىٰ ينظر، وتوجد فيه شروط الصحيح)[1].

وقال الإمام الشوكاني: (واعلم أن ما كان من الأحاديث في (الصحيحين) أو في أحدهما جاز الاحتجاج به دون بحث؛ لأنهما التزما الصحة وتلقت ما فيها الأمة بالقبول)[2].

وقال الإمام ابن القيم: اعلم أن جمهور أحاديث البخاري ومسلم من هذا الباب، فأما ما تلقاه أهل الحديث وعلماؤه بالقبول والتصديق، فهو محصل للعلم، مفيد لليقين[3].

ولا يعني هذا أننا نضفي قُدسية علىٰ البخاري، فهو بشر يخطئ ويصيب، إنما تقدس كتابه (**الجامع الصحيح**)، لما اشترطه من شروط لقبول الحديث، وإجماع أهل العلم علىٰ صحة أحاديثه وقطعيتها، كما تقدم، وإنك لا ترىٰ هذه المعاملة إلا مع كتاب (**الجامع الصحيح**)، فالبخاري له كتب أخرىٰ، منها (**الأدب**

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٢٠).

(٢) نيل الأوطار (١/ ٢٥).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٦٢- ٥٦٣).

المفرد)، ليس كل ما فيه من أحاديث صحيحة، إنما تدور بين الصحيح والحسن والضعيف، والشيخ الألباني حققه وجعل مصنفًا بعنوان: (**ضعيف الأدب المفرد**)، وكذا كتاب (**التاريخ**) و(**خلق أفعال العباد**)، وغيرها.. فليست هناك قدسية للبخاري نفسه في جميع ما تكلم به، إنما المشهود له بصحة كتابه (**الصحيح**) لما اشترطه، فشرط الحديث الصحيح عند أهل العلم: اتصال الإسناد، وعدالة الرواة، وضبط الرواة، والسلامة من الشذوذ، والسلامة من العلة القادحة... هذه الشروط نقبل بها الحديث إذا توافرت، لكن الإمام البخاري أضاف شرطًا رفع كتابه منزلة عالية من الصحة والقبول، وهو حدوث الالتقاء بين الراوي وشيخه، وهذا صعب تتبعه، لم يكتفِ بالمعاصرة كالإمام مسلم، بل لا بد من الالتقاء بينهما..

ثم يزيد الكاتب الأمر سوءًا حينما يصر أن يقحم نفسه في فنون ليست من اختصاصاته، فيقول علىٰ الحديث: إنه حديث آحاد، وأنا أكاد أقسم أنه لا يعرف معنىٰ الكلمة، وإنما ينقلها عن غيره...

علماء الأصول يقسموا الأحاديث قسمين:

١- **الحديث المتواتر**.

٢- **الحديث الآحاد**: وهو ثلاثة أقسام (المشهور –العزيز – الغريب).

وباختصار: المتواتر هو الذي رواه جمع عن جمع.. وهو يفيد قطعية الثبوت.

أما الآحاد فهو نقل الواحد أو الاثنين مما لا يبلغ حد التواتر، وهذا النوع إذا توافرت فيه شروط الصحة أفاد العِلم، واحتمال نفيه قليل، وعلىٰ ذلك يجب العمل به، وقد عمل الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم بخبر الواحد[1]. وحديث تحويل القبلة دليل، فقد قَبل الصحابة خبر الرجل أنه صلىٰ مع النبي ﷺ إلىٰ الكعبة، فاستداروا وهم في صلاتهم استجابة له[2].

ثم إنَّ الحديث قطعي الثبوت لا شك لأنه ورد في صحيح البخاري ولم يتكلم فيه أحد.

والحديث يصل إلىٰ حد التواتر اللفظي والمعنوي:

فقد خرجه الطبراني عن جمع من الصحابة، وذكرهم الهيثمي في «مجمع الزوائد»، فرواه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بإِسْنَاد حَسَن، وَعَنْ عَائِشَةَ، وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، وَعَنْ عِصْمَة رضي الله عنهم وغيرهم[3].

وكذا ورد معناه في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: (**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ**

(١) انظر: البيان المأمول في علم الأصول.

(٢) انظر: البخاري (٤٠٣) ومسلم (٥٢٦).

(٣) انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ٢٦١).

أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ).

وأخرجه النسائي عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: **(لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا رَجُلٌ زَنَىٰ بَعْدَ إِحْصَانِهِ، أَوْ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، أَوِ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ).**

وأخرجه أبو داود وابن ماجه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه بلفظ: **(لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: رَجُلٌ زَنَىٰ وَهُوَ مُحْصَنٌ فَرُجِمَ، أَوْ رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أَوْ رَجُلٌ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ)**

كل هذا نحن في غنىٰ عنه إذا سلمنا لكلام أهل العلم الثقات، وتيقنا أن صحيح البخاري قطعي الثبوت يفيد الاحتجاج، لكن ذكرنا ذلك ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المدثر: ٣١].

أما مسألة أن الأحاديث شارحة للقرآن، فهذا أيضًا كلام دون علمٍ، فهو يذكر وظيفة واحدة من وظائف الأحاديث، ففي علم الأصول تجد وظائف السنة (الأحاديث) ثلاثة أقسام:

١- **سُنة تقريرة:** تقرر وتؤكد ماجاء به القرآن: مثل قوله: **(الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ)** يؤكد قوله تعالىٰ: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)**.

٢- **سُنة بيانية:** تشرح وتبين وتفصل ما أجمله القرآن، مثل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغيرها من الأحكام.

٣- سُنة إضافية: وهي أحكام تضيف وتزيد علىٰ ما جاء به القرآن، من ذلك تحريم الذهب والحرير، وتحريم حلق اللحية، وترحيم الجمع بين المرأة وعمتها، وتحريم أكل الحمر الأهلية..

أنا أكاد أجزم أن الكاتب لم يقرأ عن هذه التأصيلات العِلمية من قبل لذا ضل وحاد عن الصواب وتكلم بجهل وكذب علىٰ الله. فحكم قتل المرتد، جاءت به السنة من باب الإضافة وكذا البيان.. وهذا واضح لكل ذي بصرٍ وبصيرة.

وهذا المتقدم من المقال شأنٌ وشأن الباقي مختلف جدًا، فأنت أيها الكاتب لا تفقه فنون العلم الشرعي، ومع ذلك تتكلم في دين الله بغير علم، وكذلك لا تقرأ التاريخ وتغالط أحداثه وتكذب علىٰ الناس**!!**

فقد تكلم علىٰ (**حروب الردة**) علىٰ (أن الموضوع لا علاقة له بالكفر والإيمان بل بمال وسلطان ونفوذ والحفاظ علىٰ وحدة الدولة). هكذا جعل حروب الردة تدور علىٰ مانعي الزكاة فقط**!!** والكل يعلم أن الردة التي حدثت بعد وفاة النبي ﷺ كانت علىٰ قسمين:

١- قسم خرج من الدين بالكلية واتبع المتنبئين الذين ظهروا في بلاد طيء وحنيفة وأسد وتميم واليمن، أمثال مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد، وسَجَاح بنت الْمُنْذر، وقد

هم النبي أن يرسل جيوشًا للقضاء علىٰ هؤلاء ولكن المنية وافته قبل ذلك، فأتم أبو بكر ذلك.

٢- الذين منعوا الزكاة، وتأولوا قول الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[التوبة: ١٠٣]، فقالوا: المراد محمد وليس لأحد بعده أن يجمع الزكاة.

وفي القسم الثاني كانت مراجعة عمر بن الخطاب لأبي بكر رضي الله عنهما، كما استشهد الكاتب، فقال عمر رضي الله عنه: «علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: **(أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)**».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونه إلىٰ رسول الله لأقاتلنهم علىٰ منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. قال عمر رضي الله عنه: فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

هكذا تكلم عمر رضي الله عنه بما سمع من النبي ﷺ، وإلا فابنه عبد الله رضي الله عنه سمع غير ذلك، فقال: قال رسول الله ﷺ: **(أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم علىٰ الله)**[متفق عليه].

فهذا الحديث حُجة علىٰ قتال مانعي الزكاة رواه أقرب الناس إلىٰ عُمر، وهو ابنه، فلم يكن رأي أبي بكر رأيًا فرديًا، فكان يعلم جيدًا أنه لا مجال للاجتهاد أو الشورىٰ مع وجود النص الواضح الجلي.

فيا أيها الكاتب: افهم أولًا، حروب الردة كانت في بلاد كثيرة وفيهم من ارتد كُليًا عن الدين، ليس الأمر أن (بعض القبائل هجمت علىٰ المدينة لأنهم كانوا رافضين لخلافة أبي بكر وامتنعوا عن دفع الزكاة) كما مثلت بقِلةٍ احتلت مدينة (مرسىٰ مطروح) مثلًا وفصلتها عن مصر!!! كلام مضحك جدًا!! فهل يتصور أن يُبيح الشرع قتال من عطل فريضة الزكاة (وهم يشهدون أن لا إله الله كما نقلت أنت عن عمر) ولا يبيح قتال من عطل فرائض الإسلام كلها وشهادة التوحيد؟

ثم أتىٰ بنماذج من عصر النبوة ارتدت، والنبي ﷺ -علىٰ زعمه- لم يقتلهم حدًا!!

الأول: كاتب الوحي الذي افترىٰ علىٰ الرسول بقوله: «ما يدرىٰ محمد إلا ما كتبت له»، وزعم الكاتب أن الرسول تركه حرًا طليقًا وقَبل فيه الشفاعة حتىٰ مات علىٰ فراشه!!

وتراه يعارض نفسه، بعد ما صب جام غضبه علىٰ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، رجع يستدل من أحاديثه وكتب المحدثين، بل ووقع في خطأ علمي

فادح حينما عزا حديثًا في البخاري إلىٰ كتابٍ هو مجرد ترتيب للأحاديث التي في البخاري وهو: «هداية الباري إلىٰ ترتيب أحاديث البخاري»!!

ولنعود للقصة التي رواها البخاري ومسلم، ولفظ مسلم: «كَانَ مِنَّا رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ قَدْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَكَانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ هَارِبًا حَتَّىٰ لَحِقَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: فَرَفَعُوهُ، قَالُوا: هَذَا قَدْ كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ فَأُعْجِبُوا بِهِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَصَمَ اللهُ عُنُقَهُ فِيهِمْ، فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ، فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَىٰ وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ، فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَىٰ وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ، فَوَارَوْهُ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَىٰ وَجْهِهَا، فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا».

هكذا نص الحديث: (**فَانْطَلَقَ هَارِبًا**) هرب منهم ومن القتل ولجأ بأهل الكتاب في الشام، لكن قتله الله ولفظته الأرض!!

والثاني: عبيد الله بن جحش، الذي استنصر في الحبشة!

يا أيها الكاتب، مِن دون أن أرجع إلىٰ الكُتب وأأصل لك المسألة، ببساطة شديدة أنت قلت إنه استنصر في الحبشة أي في بلد لا سلطان للنبي ﷺ عليها، وهجرة الحبشة كانت في بداية الإسلام، فلم تكن تنزل علىٰ المسلمين الأحكام الشرعية مثل هذه، ومعلوم أن الأحكام الشرعية نزلت في المدينة بعد الهجرة، فافهم!!

والثالث: الحارث بن سويد الأنصاري وقصته رواها عبد الرازق في مصنفه بسند رجاله ثقات، فقال: (جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلىٰ قومه، فأنزل الله فيه القرآن: (**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**) إلىٰ: (**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)، قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال الحارث: إنك -والله! ما علمت- لصدوق، وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه)!

ورواها النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، سَلُوا لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ: (**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**) إِلَىٰ قَوْلِهِ (**غَفُورٌ رَحِيمٌ**) فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ).

القصة واضحة أنه ارتد ثم أسلم وحسن إسلامه، فلا مجال للتعليق، بل القصة فيها دليل علىٰ الاستتابة التي رفضها الكاتب، وقال: إن الرسول لم يعرف عنه أنه استتاب من ارتد أو أمر بعقوبته فمن أين أتىٰ الفقهاء بذلك؟

القصة التي بترتها وكذبت في سياقها هي الدليل، ثم حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال له حين أرسله إلىٰ اليمن: «**أَيُّمَا رَجُلٍ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ فَادْعُهُ، فَإِنْ تَابَ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ ارْتَدَّتْ عَنِ الْإِسْلَامِ فَادْعُهَا، فَإِنْ تَابَتْ فَاقْبَلْ مِنْهَا، وَإِنْ أَبَتْ فَاسْتَتِبْهَا**»[1].

وروىٰ مالك والشافعىٰ والبيهقي: أنه قدم علىٰ عمر بن الخطاب رجل من قبل أبي موسىٰ فقال له عمر: هل كان من مغربة خبر؟ قال: نعم، رجل كفر بعد إسلامه فقال: ما فعلتم به؟ قال: قربناه فضربنا عنقه. قال عمر: فهلا حبستموه ثلاثًا وأطعمتموه كل يوم رغيفًا واستتبتموه لعله يتوب أو يراجع أمر الله؟ ! اللهم إني لم أحضر ولم أرض إذ بلغني.

أما قصة الرجل وأولاده النصارىٰ: فقد ذكرها الواحدي في أسباب النزول فقال: رُوِيَ أَن أَنْصَارِيًّا كَانَ لَهُ ابْنَانِ تنصرا قبل المبعث ثمَّ قدما الْمَدِينَة، فلزمهما أَبوهُمَا وَقَالَ: وَالله لَا أَدعكُمَا حَتَّىٰ تسلما، فأبيا، فاختصموا إِلَىٰ رَسُول ﷺ فَنزلت: (**لَا إِكْرَاه فِي الدَّين**).

وترىٰ يا أيها الكاتب أنه صدَّر القصة بصيغة تضعيف (رويّ) ومعلوم معناها عند أهل الصنعة فاسأل.. وإن صحت فإنه قال:

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وقال ابن حجر في الفتح، والصنعاني في سبل السلام: إسناده حسن.

(تنصرا قبل المبعث ثمَّ قدما الْمَدِينَة) أي: قبل ظهور الإسلام، ولمّا ظهر الإسلام كانوا نصارىٰ ولم يرتدوا.. فافهم الفارق.

وفي رواية الطبري عَن ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نزلت فِي رجل من الْأَنْصَار من سَالم بن عَوْف يُقَال لَهُ: الْحصين، كَانَ لَهُ ابْنَانِ نصرانيان، وَكَانَ هُوَ مُسلمًا، فَقَالَ: يَا رَسُول الله: أَلا أستكرهما؟ فَأنْزل الله **(لَا إِكْرَاه فِي الدَّين)** الْآيَة.

أي: أنهما كانا بالفعل علىٰ النصرانية ولم يرتدوا!!! أيسمىٰ هذا تدليسًا أم كذبًا؟!

وأما عبد الله بن أُبي بن سَلُولَ، فالكل يعلم موقف النبي ﷺ من عدم قتله حيث أعلن قائلًا: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1].

وابن أُبي بن سَلُولَ لم يكن من المرتدين، كان من المنافقين، وأظن أنه معلوم بشكل جلي الفرق بين المرتد والمنافق الذي يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر!!!

أما قصة قتل عبد الله بن خطل التي أوَّلها الكاتب علىٰ أن النبي ﷺ قتله من أجل سرقة المال وقتل النفس.

فإن شيخ الإسلام ابن تيمية يرد علىٰ ذلك، فيقول: «فكان حكمه

(١) رواه البخاري ومسلم.

لو قتل قودًا (قصاصًا) أن يسلم إلىٰ أولياء المقتول فإما أن يقتلوا أو يعفوا أو يأخذوا الدية»، حتىٰ استبعد ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقتله بسبب الردة، فيقول: «ولم يقتل لمجرد الردة لأن المرتد يستتاب وإذا استنظر أنظر وهذا ابن خطل قد فر إلىٰ البيت عائذًا به طالبًا للأمان تاركًا للقتال ملقيًا للسلاح حتىٰ نظر في أمره»، واهتدىٰ رحمه الله إلىٰ أن قتْله بعد توبته بسبب سبِّه وهجائه النبي ﷺ، وهذه مسألة تنظر في كتاب (الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول)، لشيخ الإسلام ابن تيمية[1].

أظن أنه قد انكشف الغبار عن هذا المقال الأثيم، وهذا الجهل العظيم، والتلفيق والخداع..

أيها الكاتب: من حققك أن تفكر.. ولكن قبل أن تفكر تعلم أولًا، فإن هذا العلم دين، والله يقول: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وأخيرًا: أرجو قراءة كلام الدكتور علي جمعة المفتي السابق للديار المصرية، في رده علىٰ شبهات الردة، في كتاب (حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين)، المنشور من قبل مجمع البحوث الإسلامية ففيه الكفاية والغناء.

١٢ يونيو ٢٠١٣

(١) الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (ص: ١٣٥، ١٣٦).

ثانيَ اثنينِ

ارتبط أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنبي ﷺ ارتباطًا عجيبًا، فصار له مكانة في المسلمين تعقب مكانة الأنبياء لتقاربه في صفاتهم، وهذا الارتباط قبل أن يكون علىٰ التوحيد والعقيدة كان علىٰ الأخلاق والصفات، فقد وصفت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ بقولها: «**إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ**»(١).

والعجيب أن ابن الدَّغِنَةِ وصَفَ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصفات نفسها فقال: «**إِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ**»(٢).

ولم يُوصف بهذه الصفات مجتمعة -علىٰ حد علمي- إلا الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بما لا يدع مجالًا للشكِّ أن الاثنين يسيران علىٰ طريق واحد، وبمنهج أخلاقي متقارب للغاية، وصدق ربي إذ قال: ﴿**ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ**﴾[التوبة: ٤٠].

وهكذا الصُحبة تعمل في الصاحب مِن التشاكل والمماثلة عملها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المرءُ علىٰ دين**

(١) رواه البخاري (٣).

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٥).

خليله؛ فلينظر أحدُكُم من يُخَالِل»، فبين ﷺ أن الفرد منا مُشاكل ومماثل لخليله وصديقه في الاستقامة والصلاح أو في الفساد والفجور؛ ولذا قال ﷺ مرغبًا في اختيار الجليس: «**فلينظر أحدُكُم من يُخَالِل**»، أي: ليتبين مَن صاحبه، فإنك إذا صاحبته قادك إلىٰ دينه ومذهبه، فلا تُغرر بدينك، ولا تخاطر بنفسك، فتُصاحب من ليس مَرضِيًا في دينه وخلقه، فليس كل ما يلمعُ ذهبًا، وأنت في صحبته، ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

٨ نوفمبر ٢٠١٧

موقع رقيم

الحج عن بُعد

لعلك يا صديقي تستغرب العنوان، تفرك عينيك وتقرأه مجددًا: «**الحج عن بعد**»، هو كما قرأته، ليس به خطأ أو تصحيف، في هذا الوقت العصيب، ومع قرارات دول العالم بتوقف بعض أنشطة الحياة لمواجهة جائحة فيروس كورونا، تباعد بيننا وبين الحج هذا العام، واقتصرت الشعائر علىٰ بعض المسلمين ممن اختصهم الله بذلك.

أعلم أنك تعاني بعض الآلام في هذا التباعد الحاصل بيننا وبين الحج، المشاهد ونحن نشاهدها علىٰ شاشة التلفاز أو نسمعها من المذياع تثير لدينا أحاسيس كثيرة، تنبعث من قلب لم تجرِ عليه

الأقدار بالحج في هذا العام، قلب دائم الشوق والحنين لرحاب الملك الجليل، قلب تعلق بحب الله، ينبض شوقًا لرؤية بيته وزيارة مسجد نبيه، لكن دعني أتصبر وأصبرك بهذه الكلمات، هل يمكننا الحج عن بُعد؟

فرصة الأيام العشر:

لقد علم ربنا شوق قلوبنا إلىٰ بيت الله وحرمه الشريف، فعوَّض بالأيام العشر الأُول من ذي الحجة مَن فاتته الزيارة والحج، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**ما مِن أيَّامٍ العملُ الصَّالحُ فيها أحبُّ إلىٰ اللهِ من هذِهِ الأيَّام**» يعني أيَّامَ العشرِ، قالوا : يا رسولَ اللهِ، ولا الجِهادُ في سبيلِ اللهِ؟ قالَ: «**ولا الجِهادُ في سبيلِ اللهِ، إلَّا رَجلٌ خرجَ بنفسِهِ ومالِهِ، فَلم يرجِعْ من ذلِكَ بشيءٍ**»[1].

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «**أفضل أيام الدنيا أيام العشر**» - يعني عشر ذي الحجة - قيل: ولا مثلهن في سبيل الله؟ قال: «**ولا مثلهن في سبيل الله إلا رجل عفر وجهه بالتراب**»[2].

قال ابن رجب الحنبلي: «لما كان الله سبحانه وتعالىٰ قد وضع في نفوس المؤمنين حنينًا إلىٰ مشاهدة بيته الحرام، وليس كل أحد قادرًا

(١) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني وهو عند البخاري بلفظ قريب.

(٢) رواه البزار وابن حبان وصححه الألباني.

علىٰ مشاهدته في كل عام، فرض علىٰ المستطيع الحج مرة واحدة في عمره، وجعل موسم العشر مشتركًا بين السائرين والقاعدين، فمن عجز عن الحج في عام قدر في العشر علىٰ عمل يعمله في بيته يكون أفضل من الجهاد الذي هو أفضل من الحج»[1].

حِجَّ بقلبك:

لقد أراد الله لمن لم يكتب عليه الحج أن يعيش المعاني التي يعيشها الحُجاج نفسها، ليس عن طريق السماع والمشاهدة فحسب، بل عن طريق عبادات تملأ القلب بالشعور بالحج نفسه وفي الوقت الذي تؤدىٰ فيه المناسك ذاته.

- فبينما يقف الحجاج علىٰ عرفات ليغفر الله لهم ذنوبهم.. شرع الله لك وأنت في بلدك أن تصوم يوم عرفة ليكفر ذنوبك ويغفرها، فعَنْ أَبِىٰ قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ فَقَالَ: «**يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ**»[2].

- وإن كان الحجاج يستجاب دعاؤهم، فإن دعوة الصائم مستجابة[3]، وصيام التسعة أيام من شهر ذي الحجة مستحب، فعن

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب، ص ٢٧٢.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبراني في «الدعاء» والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات: دعوة الصائم ودعوة المظلوم ودعوة المسافر**». وصححه الألباني.

بعض أزواج النبي ﷺ، [وقيل: حفصة]، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ تِسْعَ ذِي الْحِجَّةِ، وَيَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، أَوَّلَ اثْنَيْنِ مِنَ الشَّهْرِ وَالْخَمِيسَ»(١).

وقال النبي ﷺ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(٢).

- وإن كان الحجيج يتمتعون بالذكر والتهليل في هذه الأيام، فقد شرع الله لك الذكر والتكبير والتهليل أيضًا، فعَنْ ابن عمر رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ**»(٣).

وكان ابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهما يخرجان إلىٰ السوق في أيام العشر يكبران ويكبر الناس بتكبيرهما(٤).

- وإن كان الحجاج يتسمون بالوحدة والجماعة، والحب والإخاء، فها هو يوم العيد تعيشه بالفرح والتجمع والحب

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(٣) رواه أحمد، وصححه الأرناؤوط لغيره.

(٤) رواه البخاري.

والسرور والإخاء، ونصلي جميعًا في ساحة واحدة، وجماعة واحدة كما اجتمع الحجيج بعرفات ومزدلفة ومِنىٰ.

- وإذا كان الحجاج يعيشون عيشة التقشف والزهد، فالنبي ﷺ يريدك أن تعيش العيشة نفسها، فقال: «**إِذَا دَخَلَتِ الْعَشْرُ، وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضَحِّيَ، فَلَا يَمَسَّ مِنْ شَعَرِهِ وَبَشَرِهِ شَيْئًا**»(١).

وفي رواية: «**فَلْيُمْسِكْ عَنْ شَعْرِهِ وَأَظَافِرِهِ**». تمامًا مثل المُحرم، الهيئة نفسها، لا يحلق شعرًا ولا يقلم ظفرًا.

- وذبح الأضحية من أعظم القربات إلىٰ الله التي تجعلك تعيش مشاعر الحجيج نفسها، في الوقت نفسه الذي يذبحون فيه الهدي ويوزعونه علىٰ الفقراء، شُرع لك أن تمارس النُسك نفسه، قال ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ، مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا**»(٢).

وفي رواية: «**مَنْ ذَبَحَ بَعْدَ الصَّلَاةِ تَمَّ نُسُكُهُ، وَأَصَابَ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ**»(٣).

هذه بعض الأعمال، وإلا فأيام العشر باب للخير مفتوح علىٰ مصراعيه، والعمل الصالح فيها أحب الأعمال إلىٰ الله.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري.

فليُقم كل منا جبلًا لعرفات في قلبه، ويدعو الله بما شاء وقت ما شاء.
ليَرجم كل مِنا الشيطان في كل لحظة من لحظات حياته.
ليَتخفف كل منا من دنياه فما بقي من الدنيا أقل بكثير مما ذهب.
ليُصلح كل منا ذات بينه، ويغفر لإخوانه، ويحب الخير لكل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.
من فاته في هذا العام القيام بعرفة: فليقم لله بحقه الذي عرفه.
من عجز عن المبيت بمزدلفة: فليُبيت عزمه علىٰ طاعة الله وقد أزلفه.
من لم يقدر علىٰ ذبح هديه بمِنىٰ: فليذبح هواه هُنا وقد بلغ المُنىٰ.
من لم يصل إلىٰ البيت لأنه منه بعيد: فليقصد رب البيت فهو أقرب إليه من حبل الوريد.

الحج عن بعد..

لا تظن أني أنهيت مقالي بهذه المشاعر فقط، فلا أزال مُصرًا علىٰ أن تحج وأنت بعيد، هذه هدايا النبي ﷺ لكَ -صديقي- وقد قتلك الشوق والحنين، وفاتك الحج، ألا تحب أن تحج في اليوم خمس مرات!

نعم فتلك خمسة أعمال تعدل في ثوابها الحج:

١- الذكر بعد الصلوات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء الفقراء إلىٰ النبي ﷺ، فقالوا: ذهب

أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا، والنعيم المقيم يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يَحُجُّونَ بها، ويَعْتَمِرُونَ، ويُجَاهِدُونَ، ويتصدقون، قال: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**»[1].

٢- الجلوس بعد الفجر للضحىٰ في المسجد:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صَلَّىٰ الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ**»[2].

٣- المشي إلىٰ صلاة الجماعة:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ مَشَىٰ إِلَىٰ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي الْجَمَاعَةِ، فَهِيَ كَحَجَّةٍ، وَمَنْ مَشَىٰ إِلَىٰ صَلَاةِ تَطَوُّعٍ فَهِيَ كَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ**»[3].

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه الترمذي وحسنه الألباني، ورواه الطبراني عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ صَلَّىٰ صَلَاةَ الصُّبْحِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ يَثْبُتُ فِيهِ حَتَّىٰ يُصَلِّيَ سُبْحَةَ الضُّحَىٰ، كَانَ كَأَجْرِ حَاجٍّ، أَوْ مُعْتَمِرٍ تَامًّا حَجَّتُهُ وَعُمْرَتُهُ**».

(٣) رواه الطبراني، وحسنه الألباني.

وهذه وحدها بخمس حِجات لمن صلىٰ الخمس صلوات في جماعة، والله ذو فضل عظيم.

٤- طلب العلم وتعليمه:

عَنْ أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النبي ﷺ قَالَ: «**مَنْ غَدَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يَعْلَمَهُ، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حِجَّتُهُ**»(١).

٥- بر الوالدين:

عَنْ أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَىٰ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي الْجِهَادَ وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، قَالَ: «**هَلْ بَقِيَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ؟**» قَالَ: أُمِّي، قَالَ: «**قَأَبْلِ اللهَ فِي بِرِّهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌّ وَمُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ**»(٢).

النية أجر المعذورين:

أخيرًا صديقي، فالنية الصالحة تبَلِّغ العبد ما يرجوه، إذا حبسه العذر، كما روي عن النبي ﷺ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»(٣).

---

(١) رواه الطبراني والحاكم، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) رواه أبو يعلىٰ والطبراني، وحسن إِسْنَاده الحافظ العراقي، وضعفه الألباني، وقال: والأحاديث بمعناه كثيرة.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

فيا قلوب المؤمنين اشتاقي إلىٰ الكعبة وأولعي..
ويا همم العارفين بغير الله لا تقنعي..
وبحب مولاكِ أفردي وبين خوفه ورجائه أقرني وبذكره تمتعي.
وفي عرفات الغرفات قفي وتضرعي.

يا راحلين إلىٰ البيت العتيق لقد سِرْتُم جُسُوما وسِرْنَا نحن أرواحا
إنَّا أقَـمْنَا علىٰ عـُذْرٍ وعَنْ قَدَرٍ ومن أقام علىٰ عـُذْرٍ كَمَنْ راحـا

هنيئًا لكَ صديقي الحَج عن بُعد، وبلغنا وإياك الحج في حَرمه أعومًا عديدة.

نشر بمجلة الوعي الإسلامي الكويتية
العدد (٦٦٤) ذو الحجة ١٤٤١هـ

***

الانتحار وفلسفة الحياة والموت

في غزوة بدر الكبرىٰ، وبينما المسلمون يتجهزون لحرب المشركين، سمعوا نداء النبي ﷺ يحفزهم إلىٰ القتال، قال: «**قُومُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**»...

إنها الجنة التي طالما اشتاق لها الصحابة، وعاشوا مع أوصافها وصدقوا بوعد الله بها، لكن يبدو أن بعضهم لأول مرة يتصور اتساع الجنة، عرضها السموات والأرض، فإذا به عُمَيْر بْن الْحُمَام الْأَنْصَارِيّ رضي الله عنه، يقول: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟

قالَ: «**نَعَمْ**».

قَالَ عمير: بَخٍ بَخٍ، (كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير).

فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**». قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّىٰ آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَىٰ بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّىٰ قُتِلَ[1].

دع هذا المشهد في مخيلتك الآن واقرأ المشهد القادم..

***

(١) صحيح مسلم (١٩٠١).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّىٰ مَاتَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**»[1].

***

إننا أمام نموذجين كل منهما باعَ حياته في لحظة، الأول باعها رضًا بالله، والآخر باعها سخطًا علىٰ ربه، الأول لم يصبر علىٰ تمراتٍ يأكلها من متاع الدنيا، وظنها حياة طويلة، والآخر لم يصبر علىٰ آلام الجرح ووجعه، وظنها حياة طويلة، وفرق بين الصبرين، وفرق بين البيعين، فالأول تشوق للجنة وسمع بُشرىٰ النبي ﷺ بها، فألقىٰ بنفسه في ساحة المعركة شجاعًا مهابًا يبذل ويضحي ويأخذ برؤوس أعدائه ولا يدري أي يدٍ تصيبه وتُرديه وأمامه مئات الفرص أن يعود بعد المعركة إلىٰ دنياه.

أما الآخر فكان جبانًا ضعيفًا لم يقوَ علىٰ جُرح ربما تكون مداواته وشفاؤه بعد يومين أو أكثر، إلا أنه قرر قطع كل فرص النجاة والشفاء والحياة، وقرر أن ينهي حياته بيده، الأول فاز بالجنة، والثاني حُرم منها.

وقال الله ﷻ: **بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة.**

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٣)، ومسلم (١١٣).

كِنَايَة عَن استعجاله الْمَوْت.

نعم، أجل الإنسان واحد ولو لم يقتل نفسه لم يكن يستأخر أجله إذا مات، لكن مُبَادَرَته كانت مِن حيثُ التَّسَبُّبِ في ذلك والقَصدِ لَه والاختِيَارِ، وإِنَّمَا استَحَقَّ المُعَاقَبَةَ لأنَّ اللهَ لَم يُطلِعْه علىٰ انقِضَاءِ أَجَلِهِ فاختَارَ هُوَ قَتْلَ نَفسِهِ فاستَحَقَّ المُعَاقَبَةَ لعِصيَانِه[1].

لقد بدا لي المشهدان وأناأتابع أخبارًا كثيرة عن ظاهرة الانتحار، فجال السؤال في خاطري، ما لنا نرفض سلوك المنتحر، مع أننا نقبل صورًا كثيرة من التضحية بالنفس وإرهاق الحياة في الجهاد والقتال والمدافعة؟ كثيرٌ من النصوص الدينية تدعونا إلىٰ الزهد في الدنيا والإقلال من تبعاتها، وفي بعض النصوص نجد الكثير من ذمّ الدنيا، والترغيب في لقاء الله، واستذكار الموت، وتحديث النفس بالشهادة في سبيل الله؟؟

ووجدت أن الفارق هو فلسفة الحياة والموت عند الاثنين، حياة المسلم غالية لكنه علىٰ استعداد أن يضحي بها لإرادة بلوغ غاية ودعم قضية، والذود عن قيمة فيجازف بتعريض حياته حتىٰ الموت، لكنه لا يباشر الموت بنفسه.

(١) **انظر**: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٠٠).

أما الانتحار فهو إرادة قتل الذات عن وعي المنتحر وإرادته، فعل الإنسان بذاته.

المسلم الحق لا يطلب الموت للموت، ولكنه يتعرض للخطر ويرضىٰ بالخطر دفاعًا عن قضيته. والمنتحر يرىٰ في الموت الخلاص والراحة وإنهاء الابتلاء والكدر..

المؤمن تهون عليه نفسه في سبيل الله.. لكن المنتحر تهون نفسه من أجل نفسه، إن قرار الانتحار ينبع من سوء تصور فلسفة الحياة والموت.

الحياة والموت في الفكر الإسلامي، لا يقابلان مفهومي الوجود والعدم، هذه أهم قاعدة في التصور الإسلامي، المنتحر يظن في موته العدم، يذهب إليه ليتخلص من وجوده، يداوي آلامه بالتلاشي والفناء، أما في التصور الإسلامي الصحيح فالموت أمر وجودي وليس أمرًا عدميّا، فالحياة الدنيا تمثل المرحلة الأولىٰ من مراحل الوجود الإنساني، والموت هو نهاية هذه المرحلة وبداية مرحلة جديدة لذلك الوجود، مرحلة الحياة الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٦٤]، أي: وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها، ولا انقطاع، ولا موت معها.

الموت ليس نهاية الطريق، بل هو انتقالة من حالة إلىٰ حالة أخرىٰ، بوابة عبور من هذه الحياة إلىٰ حياة ثانية، بل مع كثير من الدقة، هو حياة بين الحياتين، حياة البرزخ في قبر يكون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، حياة لها طبيعة خاصة يعلمها الله كحياة الجنين في بطن أمِّه التي لا نعلم عنها شيئًا، كل حياة ممهدة للحياة الأخرىٰ، غاية الأمر، أن الإسلام حذرنا من الركون للدنيا، ودعانا لأن نعتبرها ممرًا لا مقرًا، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[1].

ومعناه: لا تركن إلىٰ الدنيا ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلىٰ أهله.

والمنتحر ينظر إلىٰ الدنيا علىٰ أنها دار استقرار لا حساب بعدها، يراها غاية في ذاتها، لذلك لا يتحمل كَدرها ولا بأسها، أما الذي انكشف له الكون الفسيح بأبعاده الغيبية وعوالمه الأخرىٰ فإنه يصبر علىٰ قضاء الله، ويرضىٰ بضيق العيش، يرضىٰ ويصبر لكنه لا

(١) رواه البخاري.

يستسلم، فقدر الله مع أنه حق فإنه مدفوع بيدين ضعيفتين تُرفعان إلىٰ ربهما في مناجاة خفية، كما في الحديث: «**لا يردُّ القضاءَ إلَّا الدُّعاءُ**»(١)، وضيق العيش مدفوع بالسعي والتوكل والإنماء، قال النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(٢).

وإن كانت الدنيا في تصور المسلم مَمرًا إلىٰ الآخرة فهي ممر مُعمر لا مهجور، أرضه نامية لا بور، هذا ما أراده الله القائل: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[هود: ٦١]، ممرٌ يعبره العبد ويعمره ويترك أثره قائمًا لمن بعده، ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ**﴾[يس: ١٢].

ويوم القيامة يحاسب علىٰ هذا العُمران وما قدم في حياته الأولىٰ لحياته الأخرىٰ، ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى**﴾[الفجر: ٢٣-٢٤]. فليست وظيفة الإسلام بناء الآخرة علىٰ أنقاض هذه الحياة، إنه يجعل صلاح الآخرة نتيجة حتمية لصلاح الأولىٰ، فالمسلم الحقيقي هو الذي يُعمّر دنياه لأخراه، حياته غالية عليه لأنه يدرك أنه مسئول عنها يوم القيامة،

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

يستثمر كل لحظة في عمره ليدخرها في آخرته، لا يخشىٰ الموت لكنه لا يباشره بنفسه، لا يركن إلىٰ الدنيا لكنه يعمرها ويستثمرها.

لقد خاض آلاف الصحابة حروبًا وغزوات وفتوحات، كلهم حدث نفسه بما حدث به عمير بن الحمام، كلهم تمنىٰ لو فاضت روحه إلىٰ ربه ونال الشهادة، فمنهم من نالها، ومنهم من رجع فأكل وشرب وعافث زوجته ولاعب صغاره، بل وصلوا إلىٰ فارس والروم وبنوا الدور وعمروا القصور وتجاروا وحصلوا الثروات وأسسوا الحضارة.. وكأن شعارهم:

مستعدون للموت قادرون علىٰ الحياة.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب: ٢٣].

هذه فلسفة الحياة.. انتظارٌ للموت، لكنه انتظار مع عمل، انتظار مع إعمار ، انتظار مع استثمار وادخار.. ، فالموت يطوي صحيفة الأعمال ويُغْلِق باب التوبة أمام الميت وينقله حيث لا رجوع ولا مستعتب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ما دامت هناك لحظة من الحياة فإنك لا تبادر إلىٰ بترها كما يفعل المنتحر ويقتل نفسه، بل المؤمن ينتظر ويحيا هذه اللحظة، ولعل

أقرب ما يُصور هذه الحقيقة قول رسول الله ﷺ: «**إِنْ قَامَتْ عَلَىٰ أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا**»[1]!! وهذا الأمر بغرس النخلة الصغيرة الخضراء التي يرجىٰ نماؤها بعد زمن، في تلك الآونة العصيبة، له دلالة حافلة. إنه أمر بمواصلة أسباب الحياة، في الوقت الذي تستحصد فيه الحياة.

استعجال الموت يأس، الاستعداد للموت ثبات، الانتحار قنوط، والحياة أمل..

المؤمن منهي عن مجرد تمني الموت، فكيف بمباشرته؟

قال الرسول ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّىٰ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**»[2].

وفي رواية: «**لاَ يَتَمَنَّىٰ أَحَدُكُمُ المَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ**»[3].

هذا الحديث يوضح فلسفة الحياة والموت، فالموت يقطع خط الرجعة، والحياة زيادة من الخير، أو فرصة جديدة للتوبة، حياتك

(١) رواه أحمد وإسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

بإذن الله، وموتك بإذن الله، عليك أن تستسلم للحظة الموت كما استسلمت للحظة الحياة، لم يكن لك قرار في ولادتك، أتريد أن يكون قرار رحيلك بيدك، ولم تحقق المراد من وجودك في الحياة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

إن حياتنا ليست ملكيةً خاصة لنا بل هي وديعة الله عندنا ونحن مجرد أمناء عليها، فهِمَتْ هذا أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما مات ولدها الصغير، فقالت لزوجها: «يا أبا طلحةَ أَرَأَيْتَ لو أنَّ قومًا أعارُوا قومًا عاريةً لهم، فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا؛ قالت فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ كان أعارك ابنَك عاريةً، ثم قبضه إليه، فاحْتَسِبْ واصْبِرْ»!

لقد وهبك الله نفسًا كرمها وجعلها سرًا من أسراره وحافظ علىٰ حياتها بكل سبل الحفظ والرعاية، بل ترخص في شريعته من أجل حفظها، تظن إن بادرته بقتلها وسفك دمها ستكون أحسنت عملك؟

إن نعمة الحياة هبة إلهية عظمىٰ أحاطها الله بسياج الحماية والحفظ، بحيث لا تكون عُرضة لأي عبث بها أو إضرار بسلامتها، ولا أَدَل علىٰ أن حفظ الحياة أمر محترم لا يخضع للاستخفاف ولا العبث به من قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ

﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢].

المؤمن قد تضيق عليه الحياة، يبتلىٰ، يمرض، يحزن، ويهتم، ويكتئب، لكنه لا ينتحر، لنه لا يزال الأمل يحدوه، ولا يزال يبصر الآخرة خلف حُجب الغيب، لا يزال يستيقن بربه، ويحسن فيه الظن، وهو رب كل جميل.

إننا بحاجة أن نعيد تشكيل وَعي أبنائنا ونربيهم علىٰ تلك الأسس، نغرس فيهم معاني الحياة والموت واليوم الآخر، وطاعة الله واليقين فيه والتوكل عليه والرضىٰ بقضائه والصبر علىٰ بلائه. ليجدوا الركن الذي يحتمون به في المُلمات والشدائد والكُرب والمصائب. أن تكون لديهم شجاعة الحياة، لا جُبن الانتحار. فالمنتحر يسقط كما تسقط الورقة الذابلة التي كانت تستحق الرعاية من شجرة تسقىٰ من الأهل والمجتمع والنفس الواعية.

نشر بمجلة الوعي الإسلامي الكويتية

العدد (٥٤٩) جمادىٰ الأولىٰ ١٤٤٣هـ

المؤلف في سطور

أحمد طاهر عبد الحميد المنزلاوي

- من مواليد الإسكندرية.
- ليسانس اللغة العربية وآدبها، ودراسات إسلامية - كلية دار العلوم.
- باحث ماجستير في النقد الأدبي بكلية الآداب – جامعة المنوفية.
- عضو اتِّحاد كُتَّاب مصر.
- عضو الاتحاد الدولي للغة العربية – بيروت.
- عمل باحثًا في مركز الحضارة للدراسات التاريخية.
- عمل مصححًا لغويًّا بصحيفة الوفد – البوابة الإلكترونية.
- مدرب دولي في فنون وطرائق الكتابة الإبداعية – الأكاديمية الدولية للفنون والإعلام والإبداع (IAAMC) – الولايات المتحدة الأمريكية.
- استشاري موارد بشرية (HRCP) - المجموعة العربية للتدريب.
- يكتب في عدد من الصحف والمدونات، مثل: (مجلة الوعي الإسلامي - قصة الإسلام – بوابة الوفد – ساسة بوست - رقيم).
- له خبرة في تدريب الكُتَّاب وعقد ورش الكتابة الإبداعية.
- له اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي دراسة وتدريسًا وتحقيقًا.
- مؤسس مبادرة «صحح تاريخك».
- **نُشر له نحو ٣٥ كِتابًا ورواية أشهرها:**

* رواية: حديقة الموت.
* رواية: وبينهما حجاب.
* مجموعة قصصية: حلم أبتر.
* بُن محوج (مقالات أدبية).

* كيف تكتب رواية أو قصة قصيرة.
* مهارات الكتابة والتأليف.
* مهارات التفوق الدراسي. * سنة أولىٰ جامعة.
* أرطغرل.. قصة بناء وطن. * للتاريخ أقوال أخرىٰ.
* عثمان بن أرطغرل.. قصة تأسيس الدولة العثمانية.
* فصوص ونصوص. * الخُلق المفقود.
* النائمون لليقظة. * قصص العاشقين.

- له العديد من التحقيقات لأمهات كُتب الأدب والتاريخ، منها:

* كتاب «ألف ليلة وليلة»(٤ مجلدات).
* كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس الحنفي (٤ مجلدات).
* كتاب «خلاصة تاريخ الدولة العثمانية» لشكيب أرسلان.

للتواصل مع المؤلف:

https://www.facebook.com/mr.ahmad.almanzalawy

ولمتابعة أخبار ومواعيد ورش ودورات الكتابة:

https://www.facebook.com/almanzalawy.workshop

وللانضمام إلىٰ مبادرة صحح تاريخك:

https://www.facebook.com/almanzalawy.workshop

الفهرس

على سبيل التقديم..... ٦
الهجرة وعقلية «الحمامة والعنكبوت»..... ٨
القرآن في ثلاثة مشاهد..... ١٤
جيل الدروشة «الكيوت»..... ٢٣
فقه الابتلاء..... ٣٩
سر القوة الخفية..... ٤٤
وقفات مع ضرب الزوجات..... ٥١
أولادنا ليسوا للتمليك..... ٦٧
اتركوا للأطفال براءتهم..... ٦٨
مع موسى وضوابط الاختلاط..... ٧٠
شتات.. جمع «شات»..... ٧٤
المسامح كريم.. ما هكذا تتناول قضايا الناس..... ٧٧
البخاري.. بطل العالم في الذاكرة..... ٨٠
ابن تيمية الذي لا تعرفه..... ٨٥
آه لو لعبت يا زهر.. ثقافة وليست غِنوَة..... ٩٥
الزي الأزهري.. هوية وانتماء..... ٩٨
أي الذابحَين أنت؟..... ١٠١
الإلحاد والردة مرة أخرى..... ١١١
ثانيَ اثنينِ..... ١٢٦
الحج عن بُعد..... ١٢٧
الانتحار وفلسفة الحياة والموت..... ١٣٦
المؤلف في سطور..... ١٤٦